
روايات مصرية للجيب
عالم آخر
الذى لم يمت
2
رياحين
www.liilas.com

روايات مصرية للجيب



الذى لم يمت

لابد أن هذه الطفلة الصغيرة الجميلة تنتظر الآن ، دون أن تعرف أنه يستند على جمجمة أبيها المحترقة تحت الأرض ..

بابا لن يعود يا حلوتى .. لن يعود .. إنه رقم (٦٥٧٦٥٨) من ضحايا الفيروس .. اضطررنا لحرقه كوسيلة فعّالة للقضاء على المرض .. فعلنا هذا من أجلك يا صغيرتى !!



د. تامر ابراهيم

عالم آخر

مشاهد مخيفة من عالم الرعب والفزع

●

الرواية القادمة:

الكتاب الأسود

عالم آخر

اليوم سنحكي حكايات ..

وحكايتنا ليست كأي حكايات ، بل هي حكايات مخيفة ..

اليوم سندخل عالم الرعب من أوسع أبوابه ، وسنطوف بين القلاع والقبور .. سنغوص في قلب المحيط ، وسنستكشف أراضي لم تطأها قدم .. بشري !

سنعرف أسرارًا ما كان لنا أن نعرفها .. وربما ندفع الثمن ..

اليوم سنبدأ أولى خطواتنا في هذا العالم

لكنني لا أعد أحدًا بالعودة ..

أبدًا ..

د. تامر إبراهيم

لماذا .. ؟!

بدون أمل أخذت مساحات زجاج تلك السيارة تصارع سيل الأمطار المنهمرة ..

وفي الداخل قاومت عينا الزوج ملايين الانعكاسات الضوئية من الضوء المنبعث من أعمدة الإنارة والتي شتتها قطرات المطر على زجاج السيارة ..

وفي داخله هو قاوم ملايين الأفكار التي تقوده كلها نحو هدف واحد .. القتل !

قتل مديره ..

قالت زوجته وقد بدت شديدة الشحوب :

ـ هدئ السرعة قليلاً .. ستقتلنا ..

لم تصل إلى أذنيه سوى كلمة « ستقتلنا » .. وأحدثت رنينًا مدويًا في رأسه ..

لا .. لن يقتلها .. بل سيقتل مديره .. ذلك الحقير ..

سرق مشروعه ونسبه لنفسه ، ثم اتهمه بالجنون وطرده أمام الجميع .. منتهى الصفاقة

عادت زوجته تقول مرتجفة :

ـ أرجوك هدئ السرعة ..

تنبه لجملتها هذه المرة ولكنه لم يجب ..

تبًا للأمطار .. لا يستطيع رؤية الطريق أمامه وتلك الشوارع .. إنها زلقة ، وكأنما تشارك مديره الصفاقة !

إنه بالكاد يسيطر على سيارته ..

لانت لهجة زوجته قليلاً وهى تقول :

ـ لا داعى للانفعال بإمكانك البدء والنجاح من جديد ..

جزّ على أسنانه بشدة ، وهمس بصوت كالفحيح :

ـ يجب أن يدفع الثمن .. يجب أن يرتشف من ذات الكأس ..

ـ ولكنك ستقتل نفسك بهذا الانفعال الذى لن تجنى منه شيئاً ..

المشكلة أنه يدرك هذا جيداً إنه ـ حقاً ـ لايملك ما يفعله سوى الغضب ، وتلك الفكرة الحمقاء بأن يقتل مديره .. تلك الفكرة التى يدرك تماماً أنه لن يفعلها ..

وأمام عجزه هذا يجد نفسه فى سيارته المتهالكة فى شارع زلق تحت المطر بلا عمل ولا أمل ، فى حين يرفل مديره فى النعيم وفى النجاح الذى صنعه هو ..

ورغم أن الجو كان شديد البرودة إلا أن جسده كله يحترق ويرتجف انفعالاً وقدمه تسحق دواسة الوقود .. و ... و ...

وأخذت سرعة السيارة تزداد وتزداد .. وخفقات قلب الزوجة تدوى كطبول الإعدام ..

وفى داخلها تردد هاتف مخيف أكثر من الموت ذاته .. أن تنقلب السيارة فجأة ويلقى زوجها مصرعه ، وينحشر جسدها وهى تنزف فى طريق مصر الإسكندرية الصحراوى دون أن ينقذها أحد فى مثل هذا الوقت ..

ستموت ببطء دون أن يفكر أحد فى التوقف من أجلها ..

ابتلعت لسانها هذه المرة وقد عكس وجهها مزيج الفزع والرهبة وعيناها تعكسان صوراً متلاحقة للطريق أمامها ..

أعمدة الإنارة تظهر وتختفى مانحة إياها ومضات من الضوء الشاحب ..

علامات الطريق وقد حملت بيانات عديدة ..

سيارة أخرى على الطريق الآخر فى الاتجاه المضاد ، مرت كشبح رهيب يملك مصباحين فى مقدمته ..

ملايين .. ملايين من قطرات المطر ترتطم بزجاج السيارة وكأنما تود اقتلاعه ثم ذلك الرجل العجوز الذى ظهر فجأة تحت المطر ونظرة رعب خاطفة ومضت فى عينيه قبل أن تقتلعه السيارة من على الأرض ومن الحياة !

ومن الذى صرخ بعدها ؟؟

أهى ؟!! زوجها ؟!!! أم هو صرير السيارة إثر الفرملة المفاجئة بعد فوات الأوان قبل أن تبدأ فى الدوران حول نفسها فى الشوارع الزلقة؟! أم إنه العجوز أطلقها فى آخر لحظاته ؟!!

وتوقفت السيارة أخيرًا ..

ولم ينبس الزوج ببنت شفة .. فقط فغر فاه .. واتسعت عيناه ، ترمقان المطر المتساقط على زجاج السيارة

ولكن لماذا تغير لون المطر؟؟

أصبح لونه أحمر قانيًا ؟!!

وبرعب همست زوجته :

ـ إنه ..د ..م ..

قالتها ثم انفجرت صارخة فى عاصفة من البكاء الهستيرى :

ـ لقد قتلناه .. ذلك العجوز .. لقد رأيته .. جسده طار ..

حرك شفتيه بإجابة وهمية لم يسمعها أحد .. وتحرك أخيرًا ليفتح باب السيارة ، فدخلت العاصفة ..

وخرج هو إليها ..

هوت الأمطار على رأسه وجسده .. وصفرت الرياح فى أذنيه منذرة باقتلاعه ..

جمد البرد عظامه .. وفى وسط كل هذا سؤال رهيب ..

هل مات العجوز حقًا ؟

سار الزوج كالمأخوذ وسط العاصفة وبكاء زوجته يتصاعد من داخل السيارة ..

صوت خطواته على الشارع الزلق .. الجسد المكوّم وسط الطريق يكبر ويكبر ..

وعندما بلغ الجسد الذى سكن تمامًا ، انتفض جسده هو وكأنما لا يصدق أنه فعلها ..

وللحظة تساءل عن شعور صاحب الجثة المكوّمة أمامه قبل أن تصدمه السيارة ...

لا بد أنه كان يقف ، ليفاجأ بشبح السيارة المخيف قادماً تجاهه بسرعة خرافية و ...

ولكن مهلاً .. ما الذى كان يفعله فى هذا المكان وهذا الوقت ؟!!

صوت باب السيارة ينفتح من خلفه .. ثم خطوات أنثوية سريعة .. ثم زوجته تلهث إلى جواره متسائلة :

ـ هل .. هل مات؟!!

همس :

ـ لست أدرى ..

ومدفوعاً برغبة إجابة سؤالها ، انحنى على الجسم المتكوم أمامه ..

هزّه لحظة .. ثم قلبه على ظهره ، لتطلق زوجته صرخة رعب عاتية ، أمام الوجه المتغضن الذى حمل سكون الموتى ...

وبرعب هتف الزوج :

ـ يا إلهى ... يا للكارثة ..

عادت زوجته للبكاء الهستيرى وهى تردد :

ـ لقد حذرتك .. قلت لك هدئ السرعة .. إنك لم تصغ لى ..

هتف الزوج :

ـ لقد ظهر فجأة دون مقدمات ولم يتحرك و ..

وندت تلك السعلة الخفيفة من الجسد الساكن أمامه لتبتر حديثه ..

وبمزيج من الفزع والأمل هتف الزوج :

ـ إنه .. إنه حى!!

وانحنى مجدداً على الجسد ، ثم وبتردد ألصق أذنه على صدر العجوز وأصغى ..

خفقات قلبه الواهنة مازالت هناك .. ثم سعلة خشنة من رئتين أنهكتهما السنون ..

وفتح العجوز عينيه .. دارت عيناه فى محجريهما لحظة تستكشفان ما حولهما ..

ثم توقفتا أمام عينى الزوج الملتاعتين ..

وبصوت خشن ولكنه واهن قال العجوز :

ـ ما الذى حدث ؟

اندفع الزوج يقول :

- لقد كان حادثًا .. لقد ظهرت أمامى ولم أستطع تفاديك و ... إننى على استعداد لدفع أى تعويض ..

ابتسم العجوز ابتسامة واهنة وقال محاولاً النهوض :

- لا عليك .. لا عـ ...

ثم بتر جملته مطلقًا صرخة ألم انخلع لها قلب الزوج والزوجة وهو يمسك بساقه اليسرى قائلاً :

- ساقى .. لقد كسرت ..

امتزج صوته بنحيب الزوجة فى أذنى الزوج ليغطى على دوى العاصفة ، ولتشتعل عاصفة أخرى من التوتر والقلق فى أعماقه وهو يهتف :

- ألا توجد مستشفى بالقرب من هنا؟!

- منزلى إنه بالقرب من هنا .. أريد الذهاب إلى منزلى ..

- ولكن .. ساقك ..

هوت صرخة العجوز فى أذنى الزوج باترة ، قاطعة :

- أريد .. الذهاب .. إلى منزلى ..

- حسنًا .. حسنًا ..

والتفت إلى زوجته ليخرس نحيبها بصرخة :

- ساعدينى على نقله ..

بدت زوجته كالآلة ، إذ توقف نحيبها على الفور وساعدت زوجها فى نقله إلى داخل السيارة وإن أخذت ترتعد بلا انقطاع :

- سامحنا .. لقد كان حادثًا ..

وما إن أغلقت أبواب السيارة حتى ساد ذلك الشعور المريح بأن العاصفة أصبحت فى الخارج !

ومتقمصًا شخصية السائق مدفوعًا بخوفه قال الزوج :

- أين منزلك ؟

- سأرشدك ..

وعبر الطرق الجانبية ، الإسفلتية فى البداية والطينية بعد ذلك ، شعر الزوج بغمامة ثقيلة على نفسه تكاد تخنقه وتكاد تظلم الطريق أمامه أكثر وأكثر

هذا ما ينقصنا !

ليت المدير كان مكان ذلك العجوز .. يا إلهى .. كان سيسوى جثته بالأرض وبكل استمتاع !

بلغا منزل العجوز أخيراً ، فرفع الزوج عينيه ببطء عن الطريق وأخذ يجول بنظره فى ذلك المنزل العتيق أمامه ..

كان الذى أمامه وببساطة فيلا لم تمتد إليها أيدى العناية منذ عشر سنوات على الأقل ..

وتحدث العجوز بصوته الواهن ليقول :

ـ ذلك هو المنزل .. هل لكما أن تحملانى للداخل؟!

هتفت الزوجة على الفور :

ـ بالتأكيد ..

تحرك الزوج بآلية تامة ليخرج من السيارة وفتح الباب الخلفى وانتظر حتى انضمت إليه زوجته ، وتعاونا على حمل العجوز للداخل ..

وفى الداخل كان الاستقبال حافلاً .. مئات العناكب .. الظلام دامس .. ورائحة العطن الرطب وثمة ضوء ما يتسلل من غرفة ذات باب مفتوح ..

تقلص وجه الزوجة اشمئزازاً وهى ترمق هذا كله وساعدت زوجها فى إنزال العجوز على مقعد مغطى بالغبار قبل أن تقول :

ـ يا إلهى .. ألا يوجد من يعتنى بك ؟!

سعل العجوز سعلة مريعة أورثته إياها رطوبة المكان وأجاب :

ـ لا أحد على الإطلاق .. لقد ماتت زوجتى منذ زمن ولم نحظ بالأبناء ..

بدا التأثر على وجه الزوجة بينما تحدث الزوج بذات اللهجة الآلية :

ـ هل نحضر لك طبيباً ؟!

أجابه العجوز :

ـ ثمة طبيب يقطن فى الجوار هل ترى تلك الغرفة ؟! نعم تلك المضاءة .. ستجد داخلها التليفون ودليل الأرقام .. الدكتور (مجدى على) .. إنه يعرفنى ..

دارت عينا الزوج من وجه العجوز إلى سماء الردهة المظلمة والسقف حيث تدلت منه بيوت العناكب .. ثم الباب الخشبى للغرفة المضاءة .. ذلك الضوء الذى أخذ يتذبذب بلا انقطاع ..

« لا توجد كهرباء .. إنها تنقطع دائمًا لذا الغرفة مضاءة بالشموع »

حمل الزوج قدمه من على الأرض وخطا أول خطوة والغمامة تزداد ثقلاً وكثافة وتجعل تنفسه عسيراً والرؤية شبه معدومة ..

إنه يشعر أن تلك العاصفة فى الخارج تعصف بروحه .. تقتلعها من جذورها وتلقيها فى دوامة من الغضب ..

انتزع الكلمة كأنه ينتزع أحشاءه :

ـ سنتصل به ..

جاءت الخطوة الثانية أقل صعوبة ثم وجد نفسه وببطء يتجه نحو الغرفة ..

وتبعته زوجته ببطء .. ثم تشجعت وأسرعت تسبقه إلى الغرفة ، ثم زلزلت صرختها كل شىء .. جدران المنزل .. أعماق الرجل .. عظام العجوز .. بل والعاصفة ذاتها ..

واندفع الزوج مسرعًا إلى داخل الغرفة ، لتبدأ الصورة فى التكون فى رأسه ببطء ..

فى الأول كانت الدماء .. الدماء الجافة التى لوثت الفراش .. ثم الطفل الصغير الذى حمل وجهه شحوب الموتى وقد استلقى جسده على الفراش الملوث وقد غطاه أحدهم بملاءة حملت بقعة ضخمة من الدماء الجافة ..

وعلى الأرض كانت السكين التى تلوث نصلها ..

وانطلقت صرخة الزوجة مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. إلى الأبد !

ولا شعوريًا وجد الزوج نفسه يرمق هذه المذبحة أمامه .. يتجه إلى السكين ..

يرتكب الخطأ الفادح الخالد فى عالم الجريمة ..

التقط السكين بيده !!

ثم التفت ليواجه فوهة بندقية العجوز !!!

على باب الغرفة وقف مستندًا إلى عكاز خشبى .. كومة من العظام الواهنة تحمل بندقية وعينان يتطاير منهما الشرر ...

وخرج صوته كدفعة من اللهب :

ـ أيها القاتل ..

أخرست الكلمة صرخات الزوجة ، وفجرت الذهول فى ملامح الزوج ، وتابع العجوز :

ـ قتلت حفيدى أيها الوغد .. أيها السفاح ..

سفاح !! ... وغد!! قتلت حفيدى !!!

ما الذى يريده هذا الأبله ؟!!

وفتح الزوج فاه قائلاً :

ـ أنا .. لـ ...

قاطعه العجوز :

ـ اخرررس س ..

وجذب إبرة البندقية ليطل الموت مـن فوهتها ، والتمعت عيناه ببريق مجنون وهو يقول :

ـ الشرطة قادمة حالاً وستدفع الثمن ..

ردد الزوج ذاهلاً :

ـ ثمن ماذا ؟!

ـ ثمن موت حفيدى .. كلكم يجب أن تدفعوا الثمن ثمن معاناته .. المسكين على المرض طويلاً .. لم أملك ثمن دوائه .. ثمن لحم أقدمه له فى الطعام .. ولوقطعة صغيرة من اللحم .. كل ما استطعته أن أريحه .. منحته الراحة ، والآن أطلب الانتقام ..

ـ أنت ... قتلته ؟!!!!

ـ وأنت أمسكت السكين وكسرت ساقى ..

ـ لهذا ألقيت بنفسك أمام السيارة ؟!

ابتسم العجوز ابتسامة مقيتة ، وقال :

ـ هذا أمتع ما حدث .. الوقـوف على جانب الطريق .. إلقاء كيس من الدماء على الزجاج .. ثم ..

ثم ألقى العجوز العكاز الخشبى !

وكومضات أخذت الصور تظهر وتختفى فى ذهن الزوج ..

وجه العجوز .. إذ سقطت عليه أضواء السيارة .. الدماء تصطدم بزجاج السيارة .. ثم الجسد ملقى على الطريق .. بالحماقة .. إنه لم يرى نقطة دم واحدة تسيل منه !!

والآن يقف ممسكاً بالسكين .. أمام فوهة البندقية يحملها الوغد العجوز .. والشرطة قادمة

السكين فى يده !!!

ربما لو طاشت أول طلقة من البندقية لوجد وقتًا كافيًا ليغمدها فى قلب العجوز ..

« والآن .. ألق السكين أرضًا . »

قالها العجوز بابتسامة راضية فلم يجد الزوج مفرًا من التنفيذ ..

- عظيم .. الشرطة ستصل بعد قليل ..

دارت عينا الزوج فى الغرفة .. فى ملامح العجوز القاسية .. فى جثة الطفل المخيفة .. فى زوجته التى أخذت تنتحب جواره غير مصدقة .. ثم فى الباب الذى غطته الظلال فى الركن البعيد .. ترى إلى أين يقود ؟!

حسناً إنه يقود إلى فكرة الهرب على أية حال ...

ولكن هل يستطيع ؟؟؟؟

عاد العجوز يهذى وهو يتقدم إلى داخل الغرفة :

- ربما تتساءلان .. لماذا أنتما بالتحديد ؟!! حسناً لقد كانت ضربة قدر ، وكان من الممكن أن يكون أى أحد آخر و ...

وتعثر العجوز فى عكازه الخشبى ليسقط أرضاً ..

ومرت لحظة الاختيار كالوميض فى ذهن الزوج .. هل يهرع من الباب فى ركن الغرفة أم ينقض على العجوز وينتزع منه البندقية ؟!

لو تحرك بالسرعة الكا ...

ولكن العجوز ساعده على حسم قراره عندما ضغطت يده زناد البندقية لتنطلق رصاصة طائشة ، اخترقت السقف ..

وعلى الفور قبض الزوج على يد زوجته وجذبها صارخاً :

- اتبعينى ..

وينلف على الفور عبر الباب الذى قاده إلى سلم مظلم لم يتبين سوى أول ثلاث درجات منه ..

فأخذ يتقافز عليه دون وعى وقد أعماه الظلام تماماً .. لكن من قال أن هناك خياراً آخر ؟ هبط الثلاث درجات ثم هوى ..

هوى عبر السلم المحطم جاذباً زوجته معه .. زوجته التى أطلقت صرخة رعب مريعة قبل أن تسقط معه على أرض القبو ، لتفقد وعيها على الفور .. أو ربما ما هو أكثر !

أما هو فعلى الرغم من الارتفاع المنخفض الذى سقط منه إلا أنه شعر بعظامه كلها تئن ألماً وهو يحاول أن ينهض ..

- « تماماً كما توقعت »

دوى صوت العجوز ثم سطعت الأنوار بغتة ، فأغمض الزوج عينيه متألماً ..

وتابع العجوز :

- تماماً كما يحدث كل مرة ..

فتح الزوج عينيه فى بطء والكلمة الأخيرة تتردد فى أذنيه ..

كما يحدث كل مرة !!

ثم شهق بعنف عندما سقطت عيناه على القبو من حوله ...

على العظام .. على الدماء .. على البقايا الآدمية المتعفنة .. على الغاز الوردى الذى تدفق من أركان القبو ..

وقال العجوز :

ـ نعم إنه غاز منوم وعندما أعود ستكون جاهزاً ..

واختفى من مكانه تاركاً الزوج ورأسه تدور بشدة ..

الآن فقط فهم كل شىء بعد فوات الأوان و ...

مهلاً .. الدماء .. الآن فهم حقاً .. لقد كان الأمر خدعة و ...

وشهق أخيراً ثم سقط مغشياً عليه .. وإلى الأبد ..

وفى الأعلى .. وعندما عاد العجوز حاملاً سكيناً ضخماً وسلماً من الحبال .. رمق الطفل الصغير الذى فتح عينيه بإعياء ، فترك ما معه على الفور وانتزع الملاءة المغطاة بالدماء ليضع على جسد الطفل واحدة أخرى نظيفة ..

وبالإعياء الذى أطل من عينيه قال الطفل :

ـ جدى .. أنا جائع ..

ربت العجوز على وجهه برقة ، وقال :

ـ على الفور يا صغيرى .. سأحضر لك العشاء حالاً ..

وتناول السكين الضخم وفرد سلم الحبال من مدخل القبو متابعاً فى رضا :

ـ سيكون هناك لحم على العشاء ..

واتسعت ابتسامته الراضية أكثر ..

* * *

مرحبـاً

هل يحب أحدكم « موتسارت » ؟! حسنًا .. أنا لا أحبه !!

* * *

وضع الجرامافون الثقيل أمامه وجلس .. لقد كانت صفقة جيدة مع التاجر على كل حال .. ومع ذلك فهو لا يدرى سببًا محددًا لشرائه ..

ربما لغرابة الفكرة .. ربما لأن شكله العتيق جذاب .. أو ربما لأن المطلقين حديثًا يفعلون أشياء غريبة حقًا !

أيًا كان السبب ، إنه جالس الآن فى منزله الذى أصبح خاويًا إلا منه يدخن بشرود والجرامافون جاثم أمامه منتظرًا أى ردة فعل منه ..

وكان ذهنه شاردًا فى فكرة غريبة .. أن يحتل جرامافون عتيق مكان زوجته بالمنزل .. ألا يبدو الموقف أكثر هدوءًا بالرغم من كل شىء ؟!

لقد كان هناك الكثير من الصراخ والجدل والغضب فى الفترة الأخيرة من زواجه ، قبل أن يحسم الأمر أخيرًا ويتخذ القرار الذى شعر أنه كان يجب أن يتخذه منذ البداية ..

الطلاق ..

ومرت الأمور بسلاسة غير متوقعة هذه المرة ، بضعة إجراءات وأوراق والكثير من الأثاث الذى أخذته زوجته فى ذهابها الذى بلا رجعة ، وها هو يجلس الآن وحيدًا فى شقة شبه خاوية يحدق فى جرامافون عتيق ، ابتاعه منذ ساعات من تاجر للعاديات ، لسبب لا يعلمه إلا الله ..

أخذ يحدق فى الجرامافون بانتباه شديد ، ثم فى الأسطوانة التى حملت بحروف إنجليزية كلاسيكية الخط كلمة « موتسارت » ، والتى منحه له التاجر بلا اكتراث مرددًا :

ـ لقد كانت مع الجرامافون .. خذها بدون مقابل ..

للحظة فكر .. « موتسارت » .. إننى لا أحب موتسارت بل إننى لا أحب الموسيقا الكلاسيكية أصلاً ! ثم لم يلبث أن عدل عن هذا مغمغمًا :

ـ ولِمَ لا ؟!؟ إننى لا أملك غيرها على أية حال ..

وهكذا وضع الأسطوانة فى الجرامافون .. ووضع إبرة الجرامافون على الأسطوانة .. لتنبعث موسيقا موتسارت تملأ الفراغ من حوله ..

وعاد هو لشروده مشعلاً سيجارة جديدة .. وعلى أنغام موتسارت بدأ يتذكر ..

تذكر كيف رأى زوجته أول مرة .. أيام كانت وديعة لا يعلو صوتها على الهمس إلا قليلاً .. أيام كان وجهها يتورد خجلاً إذا قال لها .. « أحبك » .. تذكر أيام الخطوبة .. ابتسامتها عند اللقاء .. واللهفة فى عينيها إذ يفترقان على وعد بلقاء جديد ..

تذكر كيـ...

ـ « مرحباً » ..

باغته الصوت الأنثوى الذى انتزعه من أفكاره وجعله ينتفض مسقطاً السيجارة من بين أصابعه ، ليحدق فى الجرامافون ذاهلاً ..

كانت الموسيقا قد توقفت والأسطوانة تدور أمامه بلا توقف ..

هل توهم ؟!!

ربما !!

بتثاقل أطفأ السيجارة بضغطة من حذائه وأعاد إبرة الجرامافون إلى بداية الأسطوانة لتنساب الموسيقا مجدداً ولتنساب معها أفكاره ..

على الأقل إنه ليس صوت زوجته !

زوجته التى بدأت تكشف وجهها الحقيقى بعد الزواج ببضعة أيام ..

أشعل سيجارة نفث دخانها فى صمت وبدأ يحاول تخيل وجه زوجته فى الدخان المتراقص أمامه .. ظهر له الوجه المتورد لحظة خاطفة ثم تلوى الدخان وتلوت معه ملامح زوجته وفى ذهنه آخر حوار دار بينهما ..

ـ طلقنى أيها الأحمق .. لو أنك مازلت تحتفظ بكرامتك ..

ـ (منى) .. لا تجبرينى على اتخاذ رد فعل تندمين عليه ..

ـ إننى لم أندم إلا على زواجى منك ..

ـ هكذا إذن .. أنت

« مرحباً .. »

جاءت الانتفاضة أعنف هذه المرة وهو يحدق ذاهلاً فى الجرامافون الذى انبعث منه الكلمة واضحة وصداها يرن فى أذنه ..

كانت موسيقا موتسارت قد انتهت وأخذت الأسطوانة تدور بلا نهاية مصدرة صوتاً رتيباً تسللت كلمة « مرحباً » فيه !

ويحذر اقترب من الجرامافون ، ومدّ أصابعه تجاه الأسطوانة بحذر أشد .. حاول أن ..

ـ « أنا اسمى (عزة) »

دوى الصوت الأنثوى الودود من الجرامافون ليجعله يقفز إلى الخلف مبهوتًا !

إنه لم يخطئ إذن ! ولكن ..

ولكن الأسطوانة انتهت فكيف ينبعث الصوت إذن ؟!

« كيف إذن ؟! »

دوى صوت أنثوى آخر .. حملت نبراته بدلاً من الود توترًا وذهولاً واضحين انتقلت عدواهما إليه ، فجلس محدقًا فى الجرامافون !

عاد الصوت الودود يقول :

ـ « أرجوك لا تخافى »

صرخ الصوت الآخر :

ـ « يا إلهى .. من أين أتيت ؟! »

تحدث الصوت الأنثوى الودود مجيبًا :

ـ « أعـرف أن هـذا يبدو عسيرًا على التصديق ولكـن .. ولكننى .. »

وانقطع الصوت بغتة !

ولم يخرج هو من ذهوله إلا عندما لسعت السيجارة أنامله ، ليبدأ فى التحديق ذاهلاً فى الأسطوانة التى أخذت تدور مطلقة هذا الصوت الرتيب ..

ثم همس :

ـ ترى .. هل ؟!

ولكن الصوت لم يأت هذه المرة ..

ترى هل توهمت ؟!

هكذا فكّر ليصيبه هذا بالعصبية وليدفعه إلى أن يضع إبرة الجرامافون على بداية الأسطوانة مجددًا لتتخلل أفكاره موسيقا موتسارت ..

وعاد هو يجلس مشعلاً سيجارة ثالثة منتظرًا انتهاء الموسيقا التى بدت له وكأنها لن تنتهى إلا بانتهاء حياته هو !!

يا إلهى ! لكم أكره الموسيقا الكلاسيكية !

وخاصة هذا الـ (موتسارت) !!

ثم انتهت الموسيقا أخيراً ليتنفس الصعداء .. وليبدأ فى الإصغاء شاحذاً كل اهتمامه .. الصوت الرتيب لدوران الأسطوانة .. ثم وبعد أن كاد يفقد أعصابه تماماً ..

الصوت الأنثوى المتوتر :

ـ « إن هذا يبدو عسيراً على التصديق بحق .. »

الصوت الودود :

ـ « أعرف .. لكنها الحقيقة »

الصوت المتوتر يقول بحذر :

ـ « حسناً يا عزة .. كيف بدأ الأمر إذن؟ »

الصوت الودود يجيب :

ـ « لقد كان خطأ منى منذ البداية .. لقد تزوجت رجلاً مخبولاً .. »

ضايقت الكلمة الأخيرة غريزة الرجولة داخله ، لكنه حاول تجاهلها راسماً فى خياله صورة لما يسمعه الآن .. صاحبة الصوت الودود ترتدى الأبيض وتجلس أمام صاحبة الصوت المتوتر والجرامافون إلى جوارهما .. بالتأكيد كان هناك جرامافون ..

صاحبة الصوت الودود تقول :

ـ « لقد بدأ كل شىء منذ عشرة أعوام عندما قررت فجأة التصدى لرغبة والدى والزواج من زميلى فى الجامعة ، لم أفكر حينها لماذا فعلت هذا ، هل لأننى أحبه حقاً أم لمجرد تنفيذ رغبتى ؟ ولكن البكاء على اللبن المسكوب ضرب من الجنون .. وهكذا وجدتنى أبدأ حياتى مع (مراد) .. »

تحدثت صاحبة الصوت المتوتر ليجتاح توترها بعض الملل :

ـ « إلى هنا تبدو القصة تقليدية »

ولابد أن صاحبة الصوت الودود قد ابتسمت قبل أن تجيب :

ـ « أعرف .. شديدة التقليدية .. حتى بدأ هو يدمن الخمر .. هل رأيت يا سيدتى من يدمن الخمر من قبل ؟! لا .. إذن دعينى أؤكد لك أنه يكون مجنوناً تماماً وخطراً .. خطراً إلى حد لم أدركه إلا متأخراً .. جداً »

ـ « كيف ؟! »

ـ « بدأ الأمر معه بالتأخر .. كان يأتى كل ليلة والفجر يرسم خطوطه الأولى فى السماء وكنت أنتظر أنا جالسة على مقعد أمارس هوايتى فى التريكو والجرامافون يبث أنغام موتسارت .. رباه كم أعشقه .. »

ـ « زوجك ؟! »

لابد أن الامتعاض ظهر على ملامح صاحبة الصوت الودود وهى تجيب :

ـ « بل موتسارت بالطبع .. تصورى .. كان يكره موتسارت إلى حد الجنون .. مجرد وغد آخر لا يحب موتسارت .. »

ـ « إحم .. لكننى أيضًا لا أحب موتسارت .. »

ساد الصمت للحظات بعد كلمتها .. وفى ذهنه هو تخيل صاحبة الصوت الودود ترمقها بنظرة مبهمة قبل أن تقول :

ـ « ثم جاءت تلك الليلة التى حاولت فيها الاعتراض وكان هو قد فقد عقله تمامًا ولم أتخيل رد فعله .. لقد انفجر .. ودفعت أنا الثمن .. »

ـ « ما .. الذى .. فعله .. بالضبط ؟! »

ـ « أخذ يصرخ أولاً .. صرخ وسب ولعن وهذى فانفجرت أنا الأخرى لأطلب منه الطلاق .. لم أتصور حينها أننى أثرته إلى هذا الحد لكننى فعلت .. وهناك ما فعله بالضبط .. لقد ألقانى أرضًا وحمل الجرامافون الثقيل ليهوى به على ظهرى .. هوى به مرة ثانية وثالثة حتى كسر عمودى الفقرى ليشلنى تمامًا ، ثم أخذ أسطوانة موتسارت التى تحطمت تمامًا وهوى بالطرف الحاد

المكسور على عنقى .. لقد بدا لى الأمر حينها أنه أخذ يهوى إلى الأبد .. الشرطة قالت بعدها أنه لم يتوقف حتى فصل رأسى عن جسدى .. »

ـ « يا إلهى .. لكن .. سيدة عزة ما الذى تفعلينه ؟! »

ـ « دعينى أكمل لك أولاً .. لقد قتلنى .. لكننى عدت كما قلت لك .. أعرف أن الأمر عسير التصديق لكننى عدت .. وجعلته يدفع الثمن .. »

بدا الصوت المتوتر يختنق وهو يقول :

ـ « ما .. الذى تفعليـ .. ـه .. بالضبط ؟!؟ »

ـ « أكرر ما فعلته معه تمامًا .. لقد كنت أهوى التريكو كما قلت لك ، لا تتصورى كما لم أتصور أنا ما الذى يمكن فعله بإبرة تريكو .. لقد غرست الإبرة فى عنقه .. بل إن يدى كلها غاصت فى عنقه .. للشبح إمكانيات كما تعرفين .. ثم أدرت الخيط حول شرايينه العنقية ، وأدرت الخيط مرة أخرى لأصنع أنشوطة كالتى يستخدمها رعاة البقر .. ثم بدأت أجذب الخيط لتضييق الحلقة حول شرايينه .. لقد تألم كثيرًا .. الوغد الحقير تألم كثيرًا وأنا أضيق الحلقة أكثر وأكثر .. »

هز الصوت المتوتر أعصابه وهو يجاهد ليصرخ قائلاً :

- « عزة .. أرجوك .. كفى ! »

إنهـا .. إنهـا صـاحبة الصوت الودود تكرر معها ما فعلته بزوجها !

يستطيع الآن أن يتخيلها تجذب الحبل الخارج من عنق صاحبة الصوت المتوتر ببطء ! وواصلت صاحبة الصوت الودود :

- « لكن هذا لم يكن المؤلم .. ليس مؤلماً كفاية كيفما أردت .. لذا أرخيت الخيط لحظة .. ثم .. ثم جذبته فجأة بكل قوتى .. »

وشهقت صاحبة الصوت المتوتر ..

فجأة ومرة أخيرة !

واكتست الصورة التى رسمها فى ذهنه بالدماء .. دماء تفجرت من حلق صاحبة الصوت المتوتر وأسفل جلد عنقها إذ تمزقت شرايينها لتغرق ملابسها وعينيها الجاحظتين ولسانها المتدلى مع الدماء يعلنان كلمة النهاية ..

نهاية حياتها !

وفى ذهنه ارتسم تعبير قاس على وجه صاحبة الصوت الودود وهى تفلت الخيط قائلة :

- « أعرف أنك على الأقل تريدين أن تعرفى (لماذا ؟!) حسناً .. السبب لأنك كنت تكرهين موتسارت تماماً كما كان يفعل هو .. هذا هو السبب .. »

وتوقف الصوت أخيراً ..

فقط الصوت الرتيب لدوران الأسطوانة ..

أسطوانة موتسارت .. موتسارت الذى يكرهه !

يكرهه !!

هو أيضاً يكره موتسارت .. هو أيضاً ابتاع الجرامافون .. هو أيضاً سمع القصة ..

هو أيضاً عاجز عن الحركة الآن !

عاجز حتى عن إلقاء السيجارة التى تحرق أنامله الآن ..

عاجز عن الالتفات إلى صاحبة الصوت الودود .. التى ترتدى الأبيض .. ممسكة إبرة تريكو يتدلى من خيط .. والتى ظهرت على المقعد المجاور له بغتة .. لتقول :

- مرحباً ..

وازداد صوتها وداً وهى تقول :

ـ أنا اسمى عزة .. أعرف أن هذا عسير التصديق .. ولكن ولكننى .. شبح ..

* * *

عندما اكتشفت الجثة بعد ذلك ببضعة أيام .. وقف هذان الشرطيان الشابان وأولهما يقول محدقًا فى الجثة المغطاة بملاءة بيضاء مظهرة بقعة دماء واضحة فى منطقة العنق والرأس :

ـ طريقة عجيبة فى الانتحار حقًا ..

ـ المطلقون حديثًا يفعلون أشياء لا تصدق ..

ـ ويبدو أنه فعلها على موسيقا موتسارت ..

مط الشرطى شفتيه قبل أن يقول :

ـ هل تحب موتسارت ؟ حسنًا .. أنا لا أحبه !

* * *

خطـوات

« كنت أسمع تلك الخطوات .. كنت أسمعها كل ليلة »

* * *

اليوم أحتفل بمرور عامين على وحدتى ..

أن تعيش وحدك ، فهى تجربة قاسية ... تجربة فريدة ... تجربة ممتعة ..

أن تعيش وحدك فهذا هو الكمال فى حد ذاته ...

أن تعيش فى شقة بمفردك ، دون أصدقاء أو أهل أو أقارب أو حتى هاتف ، يقطع خلوتك الذاتية برنين مزعج ،هذا هو ما كنت أصبوا إليه ، وهذا هو ما حصلت عليه ..

يغلفنى الصمت التام ... صمت لا يلوثه حتى ضوء الشمس ، فلقد علقت ألواحًا خشبية على جميع النوافذ ؛ لأصنع سجنى الخاص الذى لا أملك فيه سوى كتابى الوحيد أيضًا ، أقرأ فيه كل ليلة دون أن ينتهى ..

أستيقظ كل يوم لأجلس ساعات طويلة على الفراش ، لا أملك حتى القدرة على معرفة إن كان الوقت ليلاً أو نهارًا ، ولا أبارح مكانى إلا لتلبية ضرورتى القصوى ، ثم أفتح كتابى وأبدأ فى القراءة حتى يغلبنى النعاس ، فلا ألتقى بأحد إلا فى أحلام مضطربة أستيقظ منها والعرق اللزج يغمرنى ، عاجزًا عن تذكر ما كنت أحلم به ...

هذه هى حياتى بلا زيادة أو نقصان ..

لماذا اخترت هذا النمط من الحياة ؟؟ لا أذكر .. كنت أذكر السبب فى مرحلة من مراحل وحدتى ، لكن كل الأسباب وكل المنطق ذابوا فى أطنان الصمت الذى يحيط بى من كل جانب ...

صمت طويل مستمر ثقيل مقدس .. أشك أننى لو حاولت أن أصدر صوتًا ، فلن أستطيع أن أبدد جزءًا من هذا الصمت ..

كنت أحدث نفسى فى مرحلة أخرى من مراحل وحدتى هذه ، وهى عادة تحتاج لتدريب وإصرار لتكتسبها ، وإلى مزيد من الصمت لتوقف عنها ، بعد هذا لن يتبقى لك شىء ...

فى المرحلة التى وصلت لها ، ستدرك أن الجدوى من أى شىء .. لا شىء !

ستصل إلى حالة لم يصل إليها كاهن قضى نصف عمره فى التبت ، وستبدأ الموجودات من حولك ، تتحول إلى صور ، صور ثنائية الأبعاد ، غير ذات قيمة أو لون ...

مجرد ظلال صامتة هى الأخرى .. وفى النهاية .. مزيد من الصمت والوحدة ..

أصبحت عاجزًا عن التفكير فى أى شىء أو تذكر أى حدث مررت به ، قبل أن أدفن نفسى فى عزلتى الاختيارية هذه ...

حتى الكتاب الذى أقرأ فيه كل ليلة ، أستيقظ دون أن أتذكر حرفًا واحدًا مما قرأته ...

لكنى لم أتوقف عن القراءة ... لا يوجد شىء آخر لأفعله ..

لا مذياع .. لا تلفاز .. لا صحف .. ولا أنزل حتى من المنزل لأشترى شيئًا من الطعام ، فلدى هنا ما يكفينى لأعوام مقبلة ..

ولدى الكتاب والوحدة والصمت .. أنا أغنى رجل فى تاريخ البشرية إذن !

دخنت لفترة على سبيل التغيير ، لكن سحب الدخان المتراكمة مع نقص التهوية ، أجبرتنى على التوقف ، وهأنا قد نجحت فيما عجز عنه أى مدخن آخر ..

على كل حال لست هنا لأصف لك سعادتى المفرطة ولا بؤسى المتراكم ، أنا هنا لأحكى لك ما حدث ، لا يعنى هذا أنك تهمنى فى شىء ! لعلى أفهم ..

مشكلتى بدأت حسبما أذكر .. أذكر .. حتى هذا لا أذكره على وجه الدقة ، لكنى أعرف أن الوقت كان ليلاً حينها ، وأننى كنت أقرأ فى كتابى كالمعتاد ..

والذى حدث هو أننى سمعت تلك الخطوات لأول مرة ..

خطوات ثقيلة .. خطوات واثقة .. خطوات أنثوية لحذاء ذى كعب عالى ، أخذت تصعد الدرج متجهة إلى أعلى ..

إلى شقتى !

أذكر أننى انتفضت حينها ، فأنا لم أعرف زواراً منذ جئت إلى هنا ، ولم أعتد أن يصعد أحد إلى شقتى ، فهى فى الطابق الأخير ، ولم يجرؤ أحد من الجيران على محاولة التعرف إلىّ ، لذا ... لكن مهلاً ...

هذه الخطوات تتجاوز الشقة ، لتسير قليلاً فى الممر أمام المنزل ، ثم ها هى تواصل الصعود الى السطح ، ولكن .. ..

ولكن كيف ؟!

باب السطح مغلق ببوابة معدنية صدئة ، لم ينجح أحد فى فتحها من قبل ، فإلى أين تذهب صاحبة تلك الخطوات ؟

أذكر أننى ألصقت أذنى بباب الشقة مصغياً إلى صوت الخطوات تواصل طريقها إلى الأعلى ، ثم ارتجفت حين سمعت صوت الباب المعدنى يفتح بصرير مخيف لأول مرة منذ جئت إلى هنا .. ..

من هذه المرأة ؟ وكيف فتحت الباب بمفردها ؟

سؤالان لم أحاول التفكير فى إجابتهما طويلاً ، قبل أن أعود لأغوص فى وحدتى وصمتى ، ولكن ما حدث بعد هذا ، كان جديراً بإثارة فضولى أكثر وأكثر ..

الخطوات الأنثوية الثقيلة بدأت تدق السقف فوق رأسى ، ثم سمعت الصوت المعدنى المميز لسلسلة مفاتيح تتراقص فى أصابع صاحبها ، ثم صرير فتح الباب مجدداً ...

باب آخر فى السطح الذى أعرف يقيناً أنه خالٍ تماماً ، لا توجد فيه ولو غرفة ذات باب لتفتح !

لم تتوقف الأصوات عند هذا الحد ، بل تحركت الخطوات قليلاً ، يصاحبها صوت إغلاق الباب الثانى ، كأن صاحبة هذه الخطوات دخلت شقتها ، وأغلقت الباب خلفها ...

لكن .. لكن ... لكن لا توجد شقة فى الأعلى !

صمتت الأصوات عند هذا الحد ، وعاد الصمت المقدس يغمرنى من كل اتجاه ، لكن صخب الأسئلة فى رأسى كان مدوياً بحق ، فلم أستطع النوم فى هذه المرة ..

كيف فتحت الباب المعدنى ؟!

إلى أين دخلت وما الذى تفعله فى الأعلى ؟!

من هى أصلاً ؟!

بالطبع لم أحصل على إجابة واحدة لأى من هذه التساؤلات ، فعدت لكتابى الأثير ، أقرأ فيه حتى غلبنى النعاس ... إلى هذا الحد يكاد الأمر يبدو سخيفاً مكرراً ، لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن كذلك ...

أبداً ...

* * *

فى اليوم التالى استيقظت والعرق اللزج يغمرنى ، شاعراً بثقل على صدرى يكتم أنفاسى .. هذه الشقة تحتاج للتهوية حتماً .. لكن لا .. الهواء الذى سيدخل سيحمل معه أطناناً من ضوضاء ، لم أعد قادراً على احتمالها ..

أذكر أن شيئاً ما غريباً حدث فى الليلة الماضية ، لكنى لا أذكر ما الذى حدث بالضبط ..

سنوات الصمت أحالت ذاكرتى إلى مصفاة لا تبقى على شىء ، وهأنا لا أحمل من ذكريات الليلة الماضية سوى صورة مشوشة لحذاء أنثوى ذى كعب معدنى ، دون أن أملك القدرة على تذكر ما الذى تعنيه هذه الصورة ..

شرحت لك يومى من قبل ، لذا لن أطيل عليك ، بل سأقفز مباشرة إلى النقطة التى أعرف جيداً أنك توقعتها ...

لقد سمعت الخطوات مجدداً ...

خطوات بطيئة .. خطوات مهيبة ... خطوات تصعد ...

تتابع الأصوات بعد ذلك ، حدث كالمرة الأولى تماماً ... الصرير المعدنى .. سلسلة المفاتيح ... باب يفتح ويغلق ، والخطوات تدق السقف طيلة الوقت كأنها ستهوى به ...

ثم بدأ صوت الخطوات يتعالى ، والأسوأ ... يتزايد !

نعم أصبح صوت الخطوات لأكثر من شخص .. ثلاثة أو أربعة .. لا يمكننى التمييز بدقة ، لكنى أثق جيداً ، أننى سمعت الخطوات الأنثوية وحدها .. أكرر وحدها .. تصعد ...

إذن .. خطوات من هذه ؟!

تراكم الأسئلة ، نقلنى إلى تلك الحالة الخاصة التى يعرفها كل من عاش بمفرده تماماً لعدة أعوام ، إذ أصبح فى رأسى أكثر من (أنا) وكلهم يتناقشون معى بصوت مرتفع ، يبحثون عن إجابات لهذه الأسئلة ..

ـ ربما صعد آخرون فى وقت مبكر حين كنت نائماً ..

ـ ربما هو صوت شخصاً واحداً يتحرك بسرعة ...

ـ مستحيل أن يكون شخصاً واحداً .. أنا أسمع خطوات كفيلة بهدم السقف على رأسى !

ـ ربما أنا أهذى .. نعم .. كل هذا الوقت بمفردى أصابنى بالجنون أخيراً ؟..

ـ ربما .. لكن .. لا .. أنا أهذى ..

لا يوجد أحد .. لا توجد خطوات .. أنا أتوهم هذا كله ..

نعم ..

لو صدقت هذه الفكرة ستختفى الأصوات .. سيعود الصمت .. سينتهى كل شىء ..

فتحت كتابى وأخذت أنظر فى الصفحات محاولاً التركيز ، وقد بدأ صوت الخطوات يبتعد تدريجيًا .. الصمت يعود ليقلقنى .. كل شىء يعود لطبيعته ..

ثم دوت الصرخة الرهيبة لتمزق غلاف الصمت حولى !

وإلى الأبد !

* * *

أنت الآن ترانى أقف أمام باب الشقة أنتظر .. أمسك سكين المطبخ سلاحى الوحيد تحسبًا لأى احتمال ..

لا تسألنى كيف نمت الليلة الماضية ، وكيف استطعت مقاومة صدى الصرخة الذى أخذ يتردد فى أذنى حتى الآن ..

حين تمضى كل هذا الوقت بمفردك يغدو كل شىء ممكنًا ، وكل ما تحتاج إليه هو قليل من التركيز ...

التركيييييز !

لكنى كنت أعرف أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد ... كنت أعرف مثلك تمامًا أن الخطوات ستعود ...

وستصعد ...

لم تكن لدى أية فكرة عن الذى سأفعله بالضبط ، ولكنى أثق فى أننى لن أقف ساكنًا هذه المرة ، لذا ..

لذا هأنا أقف أمام باب الشقة منذ استيقظت ، أقبض على سكين المطبخ الصدئ وأنتظر ..

أنتظر الخطوات ..

لم يعد الصمت يقلقنى ، فضربات قلبى فى صدرى ، كانت تدوى فى أذنى بضجيج مؤلم ..

ضجيج لن يتوقف إلا لو حدثت النهاية التى أخشاها !

كيف لم أنس ما حدث الليلة الماضية كما هى عادتى ؟! حسنًا .. أعرف أنه حل مجنون نوعًا ما .. لكنى كتبت كل ما حدث على الجدار ..

لا أحاول استيحاء عادات فرعونية قديمة ، لكنى لا أملك ورقًا هنا ، ولم أكن أريد أن أنسى ما حدث ، لأبقى فى عذاب عدم فهمى إلى الأبد .. لذا هأنا أقف أمام جدار كتبت عليه ملخص ما حدث الليلة الماضية .. ملخصًا رديئًا .. لكنه يكفى ..

أعرف أنك تتساءل الآن عن الذى حدث ليلة أمس ، بعد دوى الصرخة ..

أعرف لكنى لا أملك ردًا ... فلم يحدث شىء على الإطلاق !

حتى جيرانى ـ عليهم اللعنة ـ لم يتحرك أحدهم ليتحرى مصدر هذه الصرخة ..

المهم أن الأصوات اختفت بعدها ، وعاد الصمت نسبيًا ليلتها ، فأخذت أسجل على الحائط كل ما حدث ؛ لذا لا تستغرب لو رأيت كم علامات الاستفهام على الحائط ..

وهأنا أنتظر خطوات الإجابة ..

طال انتظاري ، حتى كدت أعدل عن الفكرة كلها ثم .. ثم ..

ثم سمعت الخطوات تصعد ..

خطوات مخيفة .. خطوات رهيبة .. خطوات قادمة نحوي ..

كنت أرتجف حتى كاد السكين في يدي يسقط ، لكني تحاملت على نفسي ، لأفعل ما لم أفعله منذ سنوات ..

أزحت رتاج الباب .. أمسكت بالمقبض .. التقطت نفسًا عميقًا .. ثم فتحت الباب .. فتحته قليلاً ، ودسست رأسي في الفرجة الضيقة ، لأرى ظلام الدرج ، وصوت الخطوات يصعد .. ويقترب .. ويقترب ..

ثم رأيتها لأول مرة .. يا إلهي ... لقد رأيتها !

كانت بلا وجه .. كان الشعر الأسود الطويل يغطي رأسها تمامًا .. وكانت ترتدي فستانًا أبيض اللون يشع بالضوء .. وكانت بلا ساقين !

كانت تحلق على الأرض كأنما تسير على وسادة هوائية ، لكن صوت الخطوات كان يعلو من تحركها وهي تصعد متجهة نحوي .. نحوي أنا !

البرودة المخيفة تشل أطرافي .. السكين يسقط من يدي فعلاً .. وشعري ينتصب كالقنفذ .. وهي تصعد مصدرة صوت الخطوات المخيف ..

حين استدارت لتنظر إليّ أخيرًا ، انفجرت أنا في صراخ هستيري ، وانتفض جسدي كله كأنما صعقني البرق ، ويدي تتصرف تلقائيًا لتغلق الباب ، ثم حملتني ساقاي إلى غرفة النوم ، حيث تكومت في أحد الأركان ، ضامًا ساقيّ إلى صدري ، وانفجرت في البكاء وأنا أرتجف ..

أنا أهذي .. أنا أهذي .. أنا أهذي ..

مستحيل أن يكون ما رأيته صحيحًا ... مستحيل ... مستحيل !

* * *

لم أجد في نفسي القدرة على كتابة ما حدث هذه الليلة ، لذا نمت مكاني ، واستيقظت في اليوم التالي عاجزًا عن تذكر ما حدث ..

كنت ما زلت أرتجف .. شيء رهيب حدث ليلة أمس لكني لا أذكره ..

فقط أذكر الخطوات ...

كنت أسمع هذه الخطوات .. كنت أسمعها كل ليلة !

وكنت أعرف أنني سأسمعها مجددًا هذه الليلة .. وهذا ما حدث .. سمعت الخطوات تدق أعصابي في موعدها المعتاد تصعد إلى أعلى ، ثم تتابع الأصوات المعتاد فوق السقف ...

لا .. لن أسمح لهذه الخطوات بأن تدمر حياتي .. فلتكن خطوات للشيطان ذاته فلن يمسني بسوء ، طالما أنا في شقتي لا أغادرها ، وأنا لم أكن أنوي المغادرة بأي حال ..

ما سأفعله الآن هو أنني سأجلس على فراشي كالمعتاد ، وسأواصل القراءة في كتابي كما اعتدت أن أفعل كل ليلة ..

وبالفعل فتحت الكتاب محاولاً السيطرة على تلك الارتجافة التي تغمر جسدي وبدأت في القراءة ، حتى سمعت ذلك الصوت الجديد ..

صوت شيء حاد شقّ الهواء كأنه سيف هائل ، ثم صوت الارتطام ..

ثم سقطت أول قطرة دم من السقف على الكتاب المفتوح بين يدي !

ماذا تفعل لو كنت مكاني ؟!

هل تصرخ ؟! هل تبكي ؟! هل تهرب ؟!

حسن .. أنا لم أفعل ..

أنا لم أجرؤ على فعل شيء !

فقط رفعت رأسي إلى السقف ، لأرى دائرة تصبغ باللون الأحمر وصوت الصفير يتكرر مرة أخرى ، لتسقط قطرة دم أخرى ..

بليك ..

لقد جننت ... أرجوك يا إلهي ... لقد جننت ..

بليك ..

هذه القطرة سقطت على رأسي .. وها هي تسيل لزجة على جبهتي ..

بليك ..

صفير .. ارتطام .. قطرات ..

وها أنا أسير الآن كالمأخوذ ... أغادر الفراش .. الشقة .. أصعد الدرج ..

أصعد .. أصعد .. أصعد ..

الباب المعدني مفتوح ... أدخل ... أراها ثانية ...

وأرى السكين الضخم في يدها تسيل الدماء من على نصله ...

تلتفت هي لي ، ويدوي صوتها في أذني ..

« أبي ... لقد عدت »

!!!!!!!!!!!!

* * *

« أبي .. لماذا تنسى ؟! »

« لأن النسيان نعمة يا حبيبي ... النسيان نعمة »

* * *

دعنى أحكى لك قصة رجل كان سعيداً ...

دعنى أعرفك بـ (أنا) فى وقت آخر .. أنا حين كنت زوجاً .. وأباً !

أنت الآن ترانى أدخل منزلى عائداً من عملى ، أحمل فى يدى حقيبة الأوراق وبعض الفاكهة ، كأى زوج تقليدى ..

أنت الآن ترى ملاكى الصغير (رنا) وهى تجرى نحوى بأقدام مكتنزة طفولية تردد :

ـ بابا ... بابا ...

أضع ما فى يدى على أى شىء مسطح ، وأستقبل طفلتى بين ذراعى ، أضمها بحرص ، وأطبع على خدها قبلة صغيرة .. وأداعب شعرها الناعم قائلاً :

ـ مرحبا بصغيرتى الحلوة ..

طفلتى لاتزال فى الخامسة من العمر ، وهى بالنسبة إلى مباهج الدنيا كلها مجتمعة فى جسد صغير ...

زوج وزوجة وطفلة صغيرة ...

مشهد تقليدى تماماً ، وأنا لم أعدك بأى نوع من التجديد ....

لكنى وأنا أتذكر الآن واقفاً على السطح ، أرتجف برداً وهلعاً ، أراه لمحة من ماض اندثر ...

ماض كنت فيه عادياً وتقليدياً .. فكيف انتهى بى الحال بهذه الصورة ؟!

هذا هو السؤال ...

* * *

زوجتى كانت امرأة طيبة .. تزوجتها بعد قصة حب مراهقة .. انتهت بأن أصبحت زوجتى ، وانتهى الحب بأن أصبحنا صديقين يقوضان متاعب الحياة معاً ... ثم رزقنا بـ (رنا) لتضيف إلى حياتنا معنى جديداً .. معنى جميلاً ..

كانت(رنا) تتمتع بجمال ملائكى لا أعرف ممن ورثته ، وكانت كل ضحكة تطلقها ، تغسل هموم اليوم كله ، وتمنحنى سبباً جديداً للاستمرار ...

تمر علينا السنوات وتكبر(رنا) ...

هأنا الآن أراها فتاة صغيرة ، تعود من المدرسة بمفردها ، تحمل حقيبتها الصغيرة وتبتسم وهى تحكى لنا عن يومها ...

ويمر الزمن كعادته ...

تكبر هى ونكبر نحن ... يأخذ منا الزمن ويعطيها ...

ابنتى الآن على أعتاب المراهقة والجامعة ... فاتنة كأميرة ... رقيقة كندف الثلج ... وهى تحب !

أنا أعرف هذا وأدركه جيدًا .. أسمعها تتنهد .. أراها تحلم .. أشعر بها طيلة الوقت ..

لكنها لاتزال طفلة فى نظرى .. ولا تزال فى السادسة عشر من العمر فى نظر المجتمع .. فأى نهاية تنتظرها لقصة الحب هذه ؟

إن أفضل الافتراضات التى تملكها لن تتحقق إلا بعد سنوات طويلة ، لذا حين جاءتنى ذات ليلة ، لتحدثنى عن ذلك الذى اسمه(رامى) حاولت شرح هذا كله لها ...

حاولت وحاولت وحاولت ... فكانت النتيجة :

ـ إذا لم تزوجنى من رامى ... سأنتحر !

تقولها هى بصوت لم أسمعه منها من قبل ، فتتحرك ذراعى لتطبع صفعة مدوية على وجهها ...

أول وآخر صفعة لها ...

تتجمع الدماء فى وجهها وعينيها وفى قلبى ... وتتركنى لتنفجر فى البكاء فى غرفتها ، بينما أقف أنا جامدًا ، لا أصدق ما اقترفته يداى ...

لابأس .. ستبكى قليلاً ثم ستنسى الموضوع كله .. إنها مراهقة ، وكلنا مررنا بهذه الفترة ، وكلنا أجدت معنا الصفعات نفعًا ...

لابأس .. حين تستيقظ ستكون قد نست ذلك الذى اسمه رامى ..

أنا واثق من هذا ..

لكن .. فى تلك الليلة استيقظت على صراخ زوجتى ... وقبل أن أصل إليها كان قلبى قد أخبرنى بما حدث ... لقد فعلتها !

الآن أنا أقف فى غرفة ابنتى ... أصغى لصرخات زوجتى الهستيرية وهى تحتضن الجثة الغارقة فى الدماء ..

لقد فعلتها!

* * *

تدور الدنيا بى وأنا أرمق هذا المشهد ، عاجزًا عن النطق وعن الحركة ...

الآن فقدت آخر سبب كان يدفعنى للاستمرار ... لقد فعلتها ..

الآن أتمنى لوأننى مت ألف مرة ، قبل أن أمنحها صفعة النهاية ..

الآن أرى تلك الورقة التى تعلقت بيدها .. يدها التى خرجت من أوردتها المقطوعة دماء الحياة بلا رجعة ..

« حبيبتى ... لو فرقتنا الحياة ، فعلى الموت أن يجمعنا إلى الأبد سأنتظرك .. إما فى هذه الدنيا ... أو فى عالم الخلود ...

رامى »

يا للمراهقة ... يا للمأساة !

كلنا قرأنا (روميو وجوليت) فى مرحلة من مراحل حياتنا ، لكن ... هل جربت أن تعيشها بنفسك ؟!

وفى أسوأ دور ممكن ؟!

أنا فعلت .. ودفعت الثمن ..

* * *

لكن (رامى) لم يفعلها ...

هذا ما عرفت لاحقا لا أحد فى كلية ابنتى اسمه (رامى) انتحر .. لم ينتحر أحد سوى ابنتى .. ابنتى أنا ..

الوغد الجبان النذل لم يفعلها ، لكنه ترك ابنتى تنزف حتى الموت وهى تردد اسمه ..

سيدفع الثمن .... أقسم أنه سيفعل ...

* * *

هل جربت أن تقتل من قبل ؟! ... لا .. إذن أصغ لى جيداً أيها الساذج ..

أول ما عليك فعله هو أن تدرس ضحيتك جيداً ، لتنتقى أنسب وقت ممكن لتنفيذ هذه المهمة القذرة ، و بالقدر الكافى من الأناقة التى ستجعلك لا تترك دليلا واحداً يشير إليك ...

هذه مهمة صعبة بالمناسبة ، لكنها الضرورة ... فلا يزال مشهد جثة ابنتى الغارقة فى الدماء يطاردنى كلما أغلقت عينى ، ولم أعد أستطيع الاحتمال ..

هناك مشكلة أخرى عليك أن تتجاوزها نفسياً ، وهى أنك ستقتل شخصاً ...

شخصاً يحب ويكره ويفكر ويضحك وينام ويحلم ويصيب ويخطئ ... مثلك تماماً ...

وكل هذا سينتهى على يديك ...

أنت ستضع حداً لحياته وربما لحياتك لو انكشف أمرك لذا عليك أن تفكر ملياً .. أن تفكر طويلاً .. بعدها سيتحول الأمر بالنسبة لك ، مهمة عليك أن تنجزها ، وسيتحول الشخص فى مهمتك الرهيبة هذه إلى شىء تتخلص منه تماما ككتاب قديم مللت قراءته ..

هكذا استغرقت فى تفكير عميق ، دام لأشهر طويلة ، لم أخرج منه إلا لأدفن زوجتى التى ماتت حزناً على ابنتها ، لتنضم إليها فى العالم الآخر ، ولأتفرغ أنا لمهمتى الحتمية ..

* * *

هنا يبدأ المرح الحقيقى ... وهنا تتأكد حقيقة أن لكل مأساة ، وجهاً كوميدياً قد يكون أكثر قسوة من المأساة ذاتها ...

« رامى » من ؟!

عرفت أن فى كلية ابنتى الراحلة أكثر من طالب يحمل هذا الاسم المقيت (رامى) .. لكن من منهم على وجه التحديد الذى أعطى ابنتى الدفعة الأخيرة على حافة النهاية ؟

هذا سؤال مهم .. هذا سؤال منطقي .. هذا سؤال سيبرر للجميع موقفى حين أنفذ ما انتويت تنفيذه ..

الحل إذن ؟!

هه .. لابد أنك استنتجته مبتسمًا .. نعم .. ستصبح كلية تجارة هذا العام بلا (رامى) .. أى (رامى) !

* * *

شبح ابنتى يتجه تجاهى بلا ساقين والسكين فى يدها لا يزال يقطر دمًا .. تردد بصوتها الحالم :

ـ أبى .. إنه أنا ..

لكن لا .. سأركز .. سأركز ..

نعم .. إننى الآن أتذكر ..

أتذكر كيف قتلت أول (رامى) ..

* * *

كان اسمه (رامى محمد) .. كان عمره سبعة عشر عامًا .. كان فى طريقه للمنزل ..

كان يعيش فى أحد الأحياء الفقيرة التى لم تسمع شوارعها لفظة (إضاءة) وكانت هذه النقطة فى صالحى .. كان يحمل فى يده تلك الأكياس البلاستيكية السوداء التى تشى بأن الفاكهة هى محتواها وكان هذا لحسن حظى ، فهذا لن يعطيه فرصة للمقاومة وأنا لست بقلب الفتى لأصارعه ..

كان يمرّ من جوارى وكله طمأنينة ، فمن الذى يقلق من عجوز مثلى يسير بمفرده فى ظلام الطريق ؟ لكنه شعر .. فى تلك اللحظة الأخيرة فى عمره وبعد أن تجاوزنى بخطوتين شعر بشىء ما ، واستدار تجاهى ليجد يدى تغرس السكين لآخره فى صدره ، بينما يدى الأخرى تكمم فمه لتمنعه من الصراخ ..

لثوان تجمدت عيناه الجاحظتان على نظرة مزجت الهلع بالدهشة بالغضب بالألم ، ثم تراخت يداه لتسقط الأكياس من يده ، قبل أن يسقط هو كصخرة ..

هكذا يموت الإنسان .. تخرج الروح ولا يتبقى سوى جسد سيبلى فى التراب ..

هكذا لم يعد هناك (رامى محمد) .. فقط جثة غارقة فى الدماء ..

أما أنا فكنت قد أخذت كمًا من الحبوب المهدئة منعنى من الذعر .. نعم لقد قتلت إنسانًا ، لكننى لن أستوعب هذه الحقيقة حتى أعود إلى منزلى ..

الآن أستعيد السكين لأدسه فى ملابسى وأبتعد بسرعة دون أن يشعر بى أحد ..

الآن أتحول من أب مكلوم إلى قاتل ..

* * *

لكنه لم يكن (رامى) المطلوب .. عرفت هذا حين زرت قبر ابنتى لأجد قصاصة ورق مكتوب عليها :

« سأذكرك إلى الأبد ..

رامى »

إذن فعملى لم ينته .. يتبقى ثلاثة يحملون هذا الاسم .. ثلاثة سينضمون إلى ابنتى فى العالم الآخر ..

* * *

قبل أن يتهمنى أحدكم بالجنون ، أؤكد أننى حاولت كثيرًا معرفة أى (رامى) الذى يجب أن يموت .. حاولت وسألت صديقات ابنتى وفتشت فى أوراقها ، لكننى لم أصل لشىء ..

لهذا دفع (رامى غانم) الثمن هو الآخر ..

هذه المرة لم أجد سوى أن أنتظره فى غرفة تبديل الملابس فى النادى ، فلقد كان من الطراز الذى لا يفارقه أصدقاؤه إلا أثناء

النوم وفى دورة المياه .. دخول النادى لم يكن صعبًا ، لكن الوصول لغرفة الملابس لم يكن هينًا .. المهم أننى فعلتها ..

كان غارقًا فى العرق وعضلاته تئن من مجهود المباراة التى خاضها منذ قليل .. كان هشًا جدًا وكالعادة لم يتوقع من عجوز مثلى شرًا ..

لا أنكر أننى شعرت بالندم حين تدفقت دماؤه الحارة على يدى بعد أن غرست السكين فى عنقه ، لكن لا .. كلما تذكرت مشهد جثة ابنتى تأكدت من أنهم يستحقون ..

كل من يحملون اسم (رامى) يستحقون !

* * *

وكان طبيعيًا أن يلفت نشاطى هذا الانتباه ..

اثنان فى ذات الكلية يقتلان طعنًا وكلاهما يحمل ذات الاسم .. يبدو الأمر مثيرًا للشك ..

هكذا بدأ الجميع فى الحذر ، وهكذا بدا أنه سيستحيل علىّ أن أواصل انتقامى ..

لكنى أقسمت ألا أتوقف .. تبقى اثنان يحملان ذات الاسم ، أحدهما السبب فى موت ابنتى ، وأنا لن أتركه يعيش ويتخرج ويتزوج ويحظى بالحياة التى حرم ابنتى منها ..

أبدًا ..

لقد كان (رامى حسين) يعيش بمفرده فى شقة صغيرة فى أحد المناطق الراقية .. لقد كان حذرًا فلم يفتح لى الباب حين زرته ، بل أخذ يحدثنى من وراء الباب بينما أنا أختلق الحجج ليفتح لى ، ولم يفعلها إلا حين تظاهرت بأننى أصبت بأزمة قلبية ، حينها لم يملك إلا أن يحملنى إلى داخل شقته ليتصل بالإسعاف ..

عجوز مسكين يصاب بأزمة قلبية أمام منزلك .. بالطبع ستساعده .. بالطبع ستعطيه ظهرك وأن تتصل بالإسعاف .. بالطبع ستشهق ذاهلا إذا اخترقت سكينته ظهرك ، وبالطبع ستكون آخر كلمة ستنطقها هى:

ـ لماذا ؟!

ثم ستهوى كأى (رامى) آخر !

وبهذا تبقى واحد فقط لتنتهى مهمتى .. لينتهى انتقامى ..

* * *

لكن (رامى رشاد) هرب !

هرب .. هرب .. هرب .. الوغد الحقير هرب ..

ترك منزله والكلية واختفى .. هرب ...

* * *

هكذا بدأت وحدتى ..

بعد أشهر من البحث أصابنى اليأس ، فانزويت بمفردى فى تلك الشقة التى أعيش فيها الآن .. كنت أهرب أنا الآخر ..

أهرب من الماضى ومن الذكريات ومن جرائمى ومن فشلى ..

ولأن النسيان نعمة .. بدأت أنسى ..

لم يعد معى سوى الوحدة ، وكتابى الوحيد أقرأ فيه كل ليلة .. مهما طالت الأيام ستنتهى وسأموت هنا دون أن يشعر بى أحد ..

هذا ما كنت أخطط له ..

حتى سمعت الخطوات ..

* * *

الآن أنا على السطح والدموع تسيل على وجنتى ببطء .. لقد تذكرت كل شىء ..

أما شبح ابنتى فمد يده تجاهى مرددًا :

ـ *أبى .. لقد انتهى الأمر ..*

تقولها فأنتبه إلى الجسد الذى تكوم على السطح بلا حراك .. مازلت أنكر هذا الوجه الذى أصبح الآن يحمل شحوب الموت وسكينته ..

(رامى رشاد) !

لكن .. ما الذى أتى به إلى هنا ؟؟

أجابت ابنتى على السؤال دون أن أنطق به :

ـ لقد كان يبحث عنك ..

يااااااه ! لهذا السبب اختفى .. ليتتبع القاتل الذى يطارده ..

لأشهر طويلة أخذ يقتفى أثرى ويبحث عنى ليقتلنى قبل أن أقتله ، وحين توصل إلى مخبئى بمعجزة ما بعد عام طويل من البحث ، وجد شبح ابنتى فى انتظاره ..

ابنتى .. أنقذتنى !

غالبت دموعى لأقول بصوت مبحوح :

ـ (رنا) .. أنا .. آسف ..

لكن شبح ابنتى أخذ يتلاشى ببطء أمامى دون أن تجيب .. وعلى الأرض هوى السكين الذى كان فى يدها ليملأ رنين سقوطه المعدنى صمت الليل ..

ـ أنا آسف يا بنتى ..

لكنها تتركنى ولا تجيب ..

الآن أسمع صوت خطوات تصعد إلى السطح .. يبدو أن الجيران على قيد الحياة برغم كل شىء .. سيبلغون السطح الآن ليجدونى جوار جثة (رامى) وسيجدون السكين الملوث بدمائه جوارى .. إنها النهاية إذن ..

لكن لا يهم .. لقد انتهت مهمتى ولم أعد أمقت الموت إلى هذه الدرجة ..

ستكون محاكمة سريعة ، بعدها السجن الانفرادى حيث أمارس وحدتى مجدداً بعدها ستكون المشنقة ..

لا بأس .. كل شىء سيكون على ما يرام ..

الآن أسترخى بينما صوت خطوات الجيران يقترب .. ويقترب .. ويقترب .. و ...

* * *

أوديسا الرعب

هذه الحلقات تختلف ..

صحيح أن هذه السلسلة عن الرعب ، لكن هذه الحلقات بالذات تتحدث عن أسوأ أنواع الرعب وأشده طرًّا ..

ربما كان من الأفضل أن تتجاهل الفتيات ومن هم دون الثامنة عشر هذا القسم ، لكن إن راق لك التحدى ، فاقرأ هذه الحلقات على مسئوليتك ..

فقط لا تنكر أننى حذرتك ..

حين يأتى الموت

« متى تظنه سيأتى ؟؟ »

قالها الأول ، فارتجف الثلاثة ، رغمًا عنهم ..

وأجاب الثانى بصبر نافد :

ـ سيأتى حين يأتى .. لا داعى لإضاعة الوقت المتبقى ، فى عذاب الانتظار .. كفانا عذاب النهاية ..

أما الثالث ، فكوّر جسده البدين ، فى أحد الأركان ، كأنما يصنع لنفسه شرنقة من الدهون المحيطة به ، وأخذ يبكى !

بكاء مر غزير ، أصاب الرابع بالغيظ ، إذ شاهد كتلة الشحم هذه تبكى ، فزمجر :

ـ أهذا وقت البكاء ؟!

جاءه الرد بطعم الدموع ، ملحًا :

ـ ألا أملك حتى لحظاتى الأخيرة ، لأفعل بها ما أشاء ؟!!

ثم غلفهم الصمت والنحيب ، فجلس الأول يفكر ..

ماذا تفعل فى لحظاتك الأخيرة ؟!؟ !

تصلى ؟؟ تبكى ؟؟ تفكر ؟؟ ترقص ؟! تقتل ؟!!

هيا فكر .. فالخيارات محدودة ، واللحظات معدودة ..

اعتصر ذهنه فلم يجد شيئاً .. لا شيء على الإطلاق ..

فراغ قاتل أكثر من الموت ذاته ..

متى ينتهي هذا كله ؟؟!

ربما بعد لحظات .. ربما بعد ساعات .. ربما بعد أيام .. لا فارق ، إنهم هنا منذ شهرين ولم يتغير شيء بعد ..

ذات الغرفة الضيقة ، عارية الجدران ، بلا أثاث أو إضاءة أو مخرج ..

فقط منفذ صغير للتهوية ، أعلى السقف ، من حيث ألقوا به ، وثلاث أرواح تتخبط مع روحه طيلة شهرين ، سابحين في ظلام أشد قتامة من ظلام القبر ، وسؤال واحد يدور في العقول والقلوب ..

متى يأتي الموت ؟!!

كان يعرف أن السؤال الأحق في حالتهم هذه هو (كيف يأتي الموت ؟) لكن أحدهم لم يجرؤ على التلفظ بالسؤال ..

سيأتي الموت بأبشع صوره .. هم يدركون هذا حق الإدراك ، فلا داعي للمزيد من الفزع ..

كانت عيونهم قد اعتادت الرؤية في الظلام كالوطاويط ، فأخذ يتسلى بمراقبة ردود أفعالهم ..

الثاني كان نحيلاً إلى حد الهزال .. إلى حد بروز عظام جمجمته المغطاة بالشعر ، وقد امتزج شعره الطويل بذقنه الثائرة ، فبدا أشبه بالمذءوبين .. ووسط غابة الشعر هذه ومضت عيناه ، كمصباحين يبثان الفزع في كل مكان ..

بإمكانك أن تلحظ علامات المرض ، في أنياب الرجل النامية ، والعروق البارزة في وجهه ، وذلك الانتفاخ الطفيف في عنقه ... المرحلة الخامسة من المرض ..

حين يبلغون المرحلة السادسة ، سيبدأ المرح .. بل قل سيبدأ الهول !

فيروس العصر ..

لا .. لم يمنحه العلماء اسماً .. فلم يتبق من العلماء أحد على قيد الحياة ليمنحه اسماً متحذلقاً ينتهي بمقطع لاتيني ، كأنه ينقصه رهبة الاسم ..

لم يعرف عن الرجل الثاني شيئاً ، ولم يهتم ليعرف ..

الثالث كان بديناً أكثر من أن يسمح لعلامات المرض بالظهور عليه .. إنه يملك من الشحم ما يكفي لإخفاء ملامحه ذاتها !!

هذه الكتلة من الشحم كانت تعمل يوماً كمدرس لعلم الذرات ، لكن حين أصابه المرض ، تحول إلى رقم في سجل ضحايا الفيروس ، ليلقوا به في هذه الغرفة حتى ينتهي أمره ، بعد هذا سيحرقون الجثث ، ويلقون بضحايا جدد في ذات الغرفة ..

هو الآن يستند براحته على جمجمة محترقة ، دون أن يبالى بهذا ..

لقد كان هذا الرجل محاميًا ، أو طبيبًا ، أو مهندسًا ... وربما كان متزوجًا ، تنتظره زوجته فى نهاية كل يوم ، بعد عودته من العمل وربما وقفت إلى جوارها طفلة صغيرة جميلة تناديه « بابا » ..

لا بد أن هذه الطفلة الصغيرة الجميلة ، تنتظره الآن ، دون أن تعرف أنه يستند على جمجمة أبيها المحترقة تحت الأرض !!

بابا لـن يعـود يا حلـوتى .. لـن يعـود .. إنـه رقـم (٦٥٧٦٥٨) من ضحايا الفيروس ..اضطررنا لحرقه كوسيلة فعالة للقضاء على المرض .. فعلنا هذا من أجلك يا صغيرتى !!

الرابع كان أكثر الثلاثة إمتاعا فى مراقبته ..

لقد كان يعرف هذا الرجل ، حين كانوا على أرض الواقع .. كان ثريًا ذلك الثراء الفاحش الكفيل برفعه من مرتبة البشر إلى مصاف الآلهة ..

حين أصابه الفيروس ، أصابه ذهول غاضب ، كأنما نسى حقيقة كونه بشريًا ، يصاب بالأمراض كسائر البشر ..

وحين أخذوه من قصره المنيف ، ليلقوا به فى هذه الغرفة ، أخذ يصرخ ، ويهدد ، ويركل ، ويقاوم ، ثم .. ثم ..

ثم ها هو الآن يختبر بضعة مشاعر آدمية ما كان يظن بوجودها ..

الجوع .. البرد .. الخوف .. الموت !!

كانت تنتابه نوبات من الضحك ، فتتردد ضحكاته الوحشية ، فى ظلام الغرفة ، كطرقات الموت فى آذانهم ... علام كان يضحك ؟؟

لا أحد يدرى !!

هو .. هو لا يملك الكثير عن نفسه ..

مجرد (هو) آخر يعيش دون أن يضيف لنفسه ، أو للحياة شيئًا .. مجرد ترس صغير فى الآلة الكبيرة كما يقولون ..

وهنا .. فى هذه الغرفة تحت الأرض ، تبدو كلمات كـ (الأحلام) و(الطموح) و (النجاح) و(الإنسان) ، كلمات رخيصة لا معنى لها ولا مذاق ..

وحين يأتى الموت ، ستحترق هذه الكلمات مع جثثهم لتختفى من الوجود ..هل يصنع ماضيه فرقًا ؟؟ هل تشكل خطاياه ذنبًا ؟؟ هل يقيم أحد لحياته وزنًا ؟؟!

ربما كان الموت ما يناسبه حقًا ..

إنـه يذكر التاريخ ... يذكر التوترات ..المفاوضات .. الحروب السلام المؤقت ، والوعود بغد مشرق ملىء بالآمال ، حتى ظهر ذلك الفيروس ليبدد كل شىء ..

تساءل مرة ، ترى .. كيف هى الحياة على سطح الأرض الآن ؟؟

كم بلغ عدد الأحياء ، وكم بلغ عدد الضحايا ؟؟

هل تبقى أحياء على سطح الأرض ؟؟ هل وجدوا علاجاً للفيروس ؟؟ هل يخرجونهم من هنا يوماً ليمنحوهم بضع حقن تشفيهم ، واعتذار على تخليهم عنهم طيلة تلك الفترة ؟؟

هل يفعلونها قبل أن يبلغوا المرحلة السادسة ؟؟!

هل يرى الأرض مرة أخيرة قبل موته ؟؟ لقد فقد الأمل فى هذا منذ زمن طويل ..

وفجأة صرخ الثانى :

ـ إننى أسمع الأصوات!

قالها فساد ذعر عجيب فى النفوس .. لقد بلغ الرجل المرحلة السادسة ..

عاد الثانى يصرخ :

ـ الأصـوات .. إنهـا تصـرخ فـى أذنـى .. لست أقدر على الاحتماااال ..

أول علامات المرحلة هى الأصوات التى يسمعها المصاب بالفيروس ، بعد ذلك يدخل فى مرحلة الغيبوبة التى ستستمر لساعات .. بعدها يستيقظ المسخ !!

سيتحول المصاب إلى مسخ متعطش للدماء لا يوقفه سوى الموت !!

وفى هذه الحالة لا يعنى انتقال الرجل إلى المرحلة السادسة إلا شيئاً واحداً ..

كان الثانى يتلوى ، معتصراً أذنيه براحتيه ، وقد برزت عروقه أكثر وأكثر ، كأنها على وشك الانفجار ، فلم يتحرك هو من مكانه فقط تبادل نظرة عميقة مع الثالث الذى ارتج شحمه والرابع الذى بدا عليه الامتعاض ..

إنهم يعرفون ما عليهم فعله جيداً .. ناقشوه مرة واحدة وكانت تكفى .. فقط حين يدخل الثانى فى مرحلة الغيبوبة ..

السؤال هو من سيفعلها هذه المرة ؟؟! لنترك هذا فى حينه ..

ارتفعت صرخات الثانى تحمل عذابات الدنيا كلها ، كأنه يحاول التغطية على صوت الصراخ فى أذنه ، ثم بدأ فى ضرب رأسه فى الجدار بلا هوادة ، لتنفجر دماؤه ..

ـ الأصواااات ... أوقفوا هذه الأصواااات !!

لكن أحدهم لم يحرك ساكناً ... لا توجد وسيلة للمساعدة .. وحين يأتى دورهم ، لن يساعدهم أحد أيضاً ..

هكذا تدور الدائرة التى ستنتهى بجثتهم المحترقة ، يستند على بقاياها ضحايا جدد ينتظرون دورهم ..

ألا يبدو الموقف ساخراً بصورة أو بأخرى ؟؟!

حقاً ؟؟!!!

إن الرجل الذى يتلوى أمامهم الآن سيغدو وجبتهم المثالية بعد جوع طويل .. طويل !!

إن ما يشاهدوه الآن لا يعدو عن كونه وجبة تنضج .. تماماً كما ترمق أنت دجاجة فى الميكروويف ، وهى تنضج .. يسيل الزبد منها لتنتهى بين أسنانك وعظامها فى سلة المهملات .. الفارق طفيف للغاية !

سيأكلونه قبل أن يستيقظ هو من غيبوبته ليفترسهم جميعاً ..

الآن يسقط الثانى بلا حراك معلناً دخوله فى مرحلة الغيبوبة .. الآن تحمل النظرات التى يتبادلونها معانى أكثر من اللازم ..

والآن يدوى السؤال صارخاً ، فى الأعين وفى أنفاسهم التى تتردد فى صدورهم ، فى إيقاع مطرد ..

من سيفعلها ؟؟!

حسناً ... إننا الآن فى مسابقة (اقتلوا هذا الرجل !) ونحتاج متطوعاً ، فمن الشجاع الذى سيتقدم ؟؟

أطرق هو ، كأنما يعلن انسحابه ، فسدد الرابع عينين ثاقبتين إلى الثالث ، أذابت الشحم فى جسده ، وجعلته يهتف منتفضاً :

ـ لا ... لن أفعلها .. لن أستطيع ..

ـ ما عليك سوى أن تجلس على وجهه ، وستقتله بوزنك ..

ـ لا ..

ـ فكّر فى الأمر ... ستمنحه موتاً نظيفاً وسريعاً ..

ـ لا ...لا ... لا ... افعلها أنت ..

التفت الرابع إليه هو ، وبرقت عيناه بوميض غريب ، وهو يقول :

ـ وماذا عنك ؟؟!

هزّ رأسه نفيا ، محافظاً على صمته ، كأنما ينتمى إلى مكان آخر ، وجاء إلى هنا لمجرد المشاهدة ، فهب الرابع واقفاً ، وهو يقول :

ـ أوغاد جبناء ..

كاد يجيبه أن (أوغاد جبناء) أفضل من (أوغاد قتلة) ، لكنه فضّل أن يلوذ بالصمت .. سنرى مقدار حماس هذا الرجل حين يأتى الدور عليه !

تحرك الرابع ببطء واثق ، كأنما يستمد ثقته من إيمان عميق بأحقية ما سيفعله ... كأنما هو رسول الموت ذاته ، وقد جاء لينفذ مهمة حتمية ، اعتاد تحمل عبئها ... انحنى على الثانى دون وجل ، وطوق عنقه بقبضتيه ، وبدأ يعتصر الحياة منه ..

مرت الدقائق كدهر لا ينتهي ... أطول ست دقائق مرت عليهم في هذه الغرفة المظلمة ... بعدها استلقى الرابع جوار جثة الثاني منهكاً ، ليقول باقتضاب :

ـ أعتقد أن هذا يفي بالغرض ..

لم يجب هو ، واكتفى الثالث بدموع صامتة أبلغ من أية كلمات .. لقد مات أولهم ، وبدأت العجلة تدور ..

ـ سنحتاج لأداة حادة لتقسيم جثته ..

قالها الرابع بلا اهتمام ، كأنه يتحدث عن قطعة لحم مشوية ، فقلب هو شفتيه ممتعضاً ، وقال :

ـ ألن تنتظر حتى يفقد دماءه ؟

ـ دماؤه قد تخفف قليلاً من العطش ..

ـ إذن فقد تحولنا نحن إلى ما كان سيتحول إليه ، لو تركناه حياً ..

ـ لا بأس من استباق الأمور ... هيا ساعدني في تقسيم الجثة

ـ أتنازل لك عن نصيبي ... لا رغبة لي في جسده ..

منحه الرابع نظرة مخيفة ، حتى بدا وكأنه سيتحمل عبء رسول الموت مجدداً معه ، لكنه تجاهله ، ليقول للثالث :

ـ وماذا عنك .. هل ستلتهم دموعك السخيفة هذه ؟؟

سالت الدموع على شفتي الثالث مدراراً ، وقال :

ـ سأنضم لك ..

ثم وجه حديثه للأول ، مبرراً :

ـ لن أتمكن من تحمل جوعي أكثر من هذا ..

أشاح هو بوجهه عنهما وقلبه يخفق كطبول الحرب ...

إلى هذه الدرجة ؟؟!!!

إنسان يتحول لوليمة غداء يقيمها مسخان من مسوخ البشرية ؟؟

لكن لا ...

ليس هما المسخين ...

بل المسوخ هم من ألقوا بهم هنا ، محتمين براية البقاء للأصلح ..

لا لتهديد الأمن القومي ... لتقتل بضعة ملايين ..

لا للخضوع لأي قوة ... لتقتل بضعة ملايين ..

لا لكل من يقف في طريق عجلة التقدم .. ستسحقه العجلة كحشرة .. لذا .. لتقتل بضعة ملايين !

ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة !!

الفرد فى سبيل المجموع ولو كان هذا الفرد هو أنت !!

تناول الرابع إحدى العظام الملقاة من حوله ، وكسرها على ركبته عليه اللعنة ! وأمسك بطرفها المدبب كأداة مثالية لتقطيع جثة آدمى ، مرددًا :

ـ لسوء الحظ أنه هزيل .. لكن لا بأس .. سيفى بالغرض مؤقتًا ..

وفى سره دعا هو أن يكون آخرهم ، كى لا يلقى مصير الثانى .. الثانى الذى تحرك بغتة !!!

تحرك كمارد الغضب لا يبقى ولا يلوى على شىء .. الرجل كان مخيفًا وهو طبيعى ، فما بالكم وقد بلغ آخر مراحل المرض .. فريسة منحت القوة للانتقام من الصيادين ...

صرخ الرابع هلعًا ، وصرخ هو مبهوتًا ، واختنقت الصرخة فى حلق الثالث وأصابع الثانى التى امتدت بغتة تعتصر عنقه بوحشية .. والبادى أظلم !!

فى آخر مراحل المرض لا يفقد المرء ذاكرته لينقلب إلى مسخ متعطش للدماء ... بل يفقد كل ما كان يمنعه عن التحول إلى مسخ مسبقًا .. تتهشم قشرة الحضارة من حوله أخيرًا ، ليولد الإنسان الحقيقى لأول مرة ..

وآخر مرة !!

لماذا لم يتحرك هو ؟؟! الواقع أنه سؤال سأله لنفسه مرارًا ؟ تكرارًا فيما بعد .. لكنه أبدًا لم يحظ بجواب ..

ربما لأنه سئم الحياة فجلس ينتظر الموت ممثلاً فى الثانى ، بلا وجل ..

ربما خشى على حياته من مواجهة الثانى لإنقاذ الثالث ...

ربما هى لحظة السعادة الشريرة التى وصفها ديستوفسكى ، والتى تمر بأى شخص حين يرى كارثة تصيب غيره بينما هو فى مأمن مؤقت عنها ..

ربما .. ربما .. ربما .. المهم أنه لم يتحرك قط .. لم يحاول حتى .. حتى حين بدأ الثانى فى تمزيق جثة الثالث ، لتنتشر دماؤه على وجهه ..

كان مبهوتًا بحقيقة الإنسان .. وحقيقة الموت !

لكن الرابع تحرك بأسرع مما يتوقع ، والتقط عظمة فخذ ضخمة ، وهوى بها على رأس الثانى ، فارتفع صوت عظام تتهشم .. وسكن المشهد على جثة الثانى تقبض على جثة الثالث ، يسبحان فى دمائهما ، وأمامهما الرابع يلهث كثور ..

ـ هيا .. يجب أن تخرج من هنا ..

قالها الرابع ، ففغر فمه ذاهلاً :

ـ ماذا ؟؟!!

- قلت لك هيا .. لن يمضى وقت طويل حتى يستيقظا ..

- لكن .. لكن لماذا ؟؟!!

- هذه مرتى الأخيرة لأكون صاحب الكلمة النهائية .. وكلمتى النهائية هى أنك ستنجو ..

- كيف ؟!

- ستصعد على الجثث حتى تبلغ فتحة التهوية .. ومن هناك إلى الخارج .. إلى السطح ، ربما كان حظك فى الأعلى أفضل من هنا .. هيا ..

- ماذا عنك ؟؟

- أنا لهما .. عرفت هذا منذ اللحظة الأولى لى هنا ..

تبادلا لحظة صمت التقت فيها عيونهما ، وتلامست أرواحهما لحظة لم ينسها هو قط .. ثم بدأ فى تكوين سلم من الجثث الآدمية ... وحين وقف أخيراً على قمة الجثث ، قال :

- تعال معى ..

- لا مكان لى فى الأعلى ... هيا اذهب ..

هز هو رأسه متفهماً ، ثم مد أصابعه ليقبض على منفذ التهوية ، ولدهشته استجاب له دون مجهود !!

استنفر عضلاته برجاء .. ليزج بجسده إلى الأعلى ، فقلت عضلاته ، ثم بدأ جسده يرتفع ببطء ..

ومن الأسفل هتف الرابع بتوتر :

- أسرع لقد بدآ فى الاستيقاظ ..

استند بمرفقه على الأرض ، ثم دفع جسده إلى الأعلى بحركة سريعة ، ليجد نفسه أخيراً خارج الغرفة ..

الآن هو فى غرفة ذات باب ونافذة يطل منها القمر صارماً ، ونسمات من الهواء تتخلل المكان من حوله ، لتجد طريقها إلى صدره ..

هل دمعت عينك يوماً لأن غرفتك بها باب ونافذة ؟؟!! هو دمعت عيناه بعدم التصديق !

أتاه صوت الرابع :

- هيه .. ستجد ذراعاً فى الجدار المواجه لك .. حركه لوضع التشغيل ..

- ما الذى سأشغله بالضبط ؟؟

- ستحرق الغرفة وتنقذنى منهما ..

- مستحيل ..

صرخ بها وجسده ينتفض هلعاً ، فأتاه صوت الرابع صارماً :

- افعلها قبل أن يبدآ فى التهامى حياً ..

- يمكنك أن تخرج هيا ... اصعد على جثثهم وسأمد لك ذراعي ..

- لا فائدة من هذا .. لقد استيقظا بالفعل .. هيا أسرع .. لا أريد أن أموت هكذا ..

- لكن ... ...

- هيا بالله عليك ... هذا هو أول وآخر شيء أطلبه منك ..

كاد يهتف بشيء ما ، لكن تلك الزمجرة المخيفة أذابت الكلمات في فمه ، ممزوجة بطعم الخوف ..

وارتفع صراخ الرابع متوسلاً :

- حرك الذراع .. أرجووك ..

قالها ثم تصاعد دوى هائل ، امتزج فيه صراخه ، بصرخات الثانى والثالث الوحشية ، كأنه قفص أسود ألقى فيه بحمل مسكين وحين تصاعدت الدماء من منفذ التهوية ، لتبلل قدمه ، لم يشعر بنفسه إلا وهو يقفز على ذراع التشغيل ، ليحركها إلى وضع التشغيل ...

للحظة لم يحدث شيء .. ثم بدأ الهول يحدث أسفل قدميه وألسنة اللهب تتلوى مع صراخ الجميع فى الأسفل .. وأسفل قدميه ارتفعت حرارة الأرض كالجحيم ، فقفز ليعدو مبتعداً ، ودموع المرارة تزيد الظلام من حوله عتمة ..

ممرات ... غرف ... درج ... ممرات ... ابتعد كل هذا لكن الصرخات لم تفارقه ...

كان يبحث عن السطح .. سطح الأرض الذى حلم به ليالى طويلة ...

لم ينتبه أن المكان كان خاويًا تمامًا ... بل مهجوراً لم تطأه قدم منذ زمن ..

لم ينتبه أن الظلام من حوله يحمل رائحة عجيبة ، لم تعرفها أنف بشرى من قبل ..

لم ينتبه حين بلغ السطح أخيراً ، أن ثمة شيء ما تغير فى حدود الماديات من حوله ..

كل ما كان يريده حينها هو أن يبتعد عن الصرخات التى تجثم على روحه ..

وحين فقد وعيه ... لم يعرف أن هذه الصرخات ستصاحبه ما بقى حيًا ..

أنها لن تتركه طيلة رحلته الطويلة ... قط ..

يتبع الحلقة القادمة

قصة العدد

الذى لم يمت

أسئلة كثيرة تحتاج لإجابة عنها ..

وأكثر ..

لماذا لم يعد الدكتور (شريف) كما كان ؟!

بعض الأشياء تتغير بعد الزواج .. هذا صحيح ..

ربما تحول زوجك الوسيم من فارس الرومانسية ، إلى زوج بدين يتجشأ طيلة الوقت .. ربما صار أكثر عصبية .. ربما طفت طباعه القذرة على السطح .. كل هذا مفهوم ومقبول ..

لكن .. الدكتور (شريف) كان مختلفًا منذ البداية ، وأنت تعرفين هذا ، فأنت حبيبة صباه ، وأنت وحدك تعرفين أن اختلافه هذا تميز فى حد ذاته ، فهذا ما جعلك تغرمين به ، وهذا ما وضع خاتمه حول إصبعك إلى الأبد ..

لكن لا .. إنه لم يكن كذلك ..

كان خجولاً وأنت لم ترفضى هذا .. كان ذكيًا أكثر من اللازم لكنك احتملت ذكاءه .. كان انطوائيًا ، لكنك اقتحمت عالمه الخاص منذ زمن ، وتركت فيه علامات لن تمحى .. حتى حين قرر العمل كطبيب شرعى عوضًا عن كل التخصصات الأكثر بهجة وربحًا ، تفهمت قراره طالما أن عمله ينتهى لحظة دخوله للمنزل ..

كل هذا كان مفهومًا .. كل هذا كان مقبولاً ..

أما ما يحدث الآن فلم تلاحظيه إلا متأخرًا ، وهذا خطأ أى زوجة تنغمس فى منزلها أكثر من اللازم .. هذا الخطأ الذى ينتهى

بالخيبة أو الطلاق أو التعاسة ، وفى حالتك أنت يبدو الأمر أسوأ من هذا كله ..

الدكتور (شريف) لم يعد كما كان ، لكن ما أصبحه عجيب بحق .. فمن أين لك بكلمة تصف الهوس بتفحص صور الموتى ؟!

فى البداية كأية حمقاء أخرى ظننت أن هذا جزء من عمله ، لكن أى عمل هذا الذى يتطلب أن تقضى ساعات الليل تتفحص فى صور الموتى على شاشة الكمبيوتر ، وكأنك تبحث عن شىء ..

لا .. إنه ليس عمله ، فهو لا يكتب أى شىء ، ولا يسجل أية ملاحظات ، ثم إنه من التقط الصور بنفسه ، ولو كان هناك شىء يريد فحصه ، لفحصه على الجثة ذاتها ..

ما يفعله الدكتور (شريف) الآن هو أنه يلتقط عشرات الصور لكل جثة تمر عليه ، بكاميراته الرقمية ، لينقلها بعد عودته إلى الكمبيوتر ، حيث يقضى الليل كله فى تكبير الصور ، وتفحصها بلهفة من يبحث عن شىء ما ..

أو من ينتظر شيئاً ما !

ما لا تعرفينه أن زوجك لا يكتفى بالصور التى يلتقطها بنفسه فى المشرحة التى يعمل بها ، بل إنه يدفع رشاوى منتظمة لعامل فى كل مشرحة أخرى فى البلاد ، بعد أن يزوده بكاميرا رقمية ، ليلتقط له الصور وليرسلها له كل ليلة ..

كل ليلة يموت فيها شخص فى مصر ، تكون صورة جثته على كمبيوتر الدكتور (شريف) بنقاء يصلح كخلفية للشاشة .. لكن الدكتور (شريف) لم يغير خلفية الشاشة المملة التى تمثل موج البحر منذ أن ابتاع الكمبيوتر ..

ثم لو افترضنا أنه مهووس بعمله ، فلماذا بدأ هذا الهوس فجأة ؟!

إنك زوجته منذ سبع سنوات ، وتعرفين أنه لم يكن كذلك منذ البداية ، بل كان طبيعياً ، أو لمزيد من الدقة كان مختنقاً .. فقط ..

أما الآن فهو يجلس كالمسحور أمام شاشة الكمبيوتر ، فلا ترين إلا انعكاس صور الموتى على زجاج نظارته ، لتتركى له الغرفة وتحاولى النوم أو مشاهدة التلفاز ، وهى ليست بالحياة الزوجية السعيدة التى كنت تطمحين إليها ..

أعرف أنك حاولت التحدث معه مراراً فلم تظفرى إلا بإجابات معقدة على غرار (إننى أعد بحثاً عن تفاعل بروتينات العضلة أثناء التصلب الرمى) أو (دراسة التقنيات الحديثة لفحص الدى إن إيه على حواف الجروح) ، وهى أشياء وهذا من حقك لا تفهمين منها شيئاً ، لكنك تعرفين أنه يكذب ..

لا تحتاج المرأة لبكالوريوس الطب والجراحة ، لتعرف أن زوجها يكذب .. إنها الغريزة الأنثوية التى لا تخطئ منذ فجر التاريخ ، وهذه الغريزة هى التى تقول إن هناك كارثة ما ستحدث قريباً ..

إنه لم يقصّر معك وهذا يستحق الذكر ، فهو لا يبدأ هذه الهواية الغريبة إلا متأخرًا ، وما قبل هذا وبعده كله من أجلك .. لكن .. لكن ..

كيف لنا أن نتهم من يقضى خمس ساعات يوميًا ، يتفحص صور الموتى الرهيبة بأنه إنسان طبيعى ؟!

لقد حاولت النظر بنفسك ذات مرة ، وانتهى الأمر بك تفرغين روحك ذاتها فى المرحاض ، أما هو فكأنما يطالع عرضًا مسليًا للأزياء ..

رجل مذبوح وعيناه جاحظتان للأبد .. خريف ٢٠٠٤ .. سيدة محترقة لم تعد تملك وجهًا .. ربيع ٢٠٠٢ ... طفل ممزق .. لا .. هذه الصورة بالذات لا تحتمل !

لماذا تغير الدكتور (شريف) ؟!

ما الذى يبحث عنه ؟ ومتى ينتهى هذا كله ؟

وهل ستحتملين أكثر من هذا ؟؟

* * *

فى ليلة الثالث عشر من كل شهر يمرّ الأخرس من أسفل نافذة (سمير) ..

أنتم تعرفون (سمير) ، فهو طفل كاسمه ، ومزعج ككل الأطفال ، وفضولى كالقطط التى تتبع الأخرس فى كل مكان ..

مزيد من الإيضاح .. حسن ..

يعيش (سمير) فى ذلك المنزل القديم فى حدائق القبة ، فى الطابق الثانى ، بحيث تطل نافذة غرفته على الشارع الواسع ، الذى يخلو تمامًا من المارة فى الثانية صباحًا ، وأنتم تعرفون ما الذى يبقى (سمير) مستيقظًا حتى الثانية صباحًا ..

إنه ينتظره .. ينتظر الأخرس ..

وحده من لاحظ الأخرس ، وكان هذا منذ عامين حين مرّ الأخرس وللمرة الأولى من أسفل نافذة (سمير) ، وهو حدث كان من الممكن أن يكون عاديًا أو تافهًا ، لولا ملاحظتان ..

الأولى : أن هذا الرجل كان أطول وأقوى من أن يكون شحاذًا ، وخطوته متزنة أكثر من أن يكون مجنونًا ، لكن ملابسه كانت تناسب الاثنين وبشدة ..

كان وجهه مختفيًا خلف شعره الطويل المنسدل حتى لحيته المشعثة ، وكان يمسك بعصا غليظة لا تعرف إن كان يستند عليها ، أم يتخذها سلاحًا فى وجه الغرباء ، وإن لم يكن هناك من يجرؤ على اعتراض طريقه على أية حال ..

الملاحظة الثانية : هى أن القطط كانت تتبعه .. عشرات القطط كانت تسير خلفه على مسافة ثابتة ، دون أن يصدر عنه أو عنها أدنى صوت ، حتى إن (سمير) قرر أن يسميه الأخرس ..

وهكذا استحوذ الأخرس على اهتمام (سمير) من أول مرة ، لكن الطفل الشقى نساه بعد فترة ، ولم يذكره حتى مرّ الأخرس من أسفل نافذته فى ليلة الثالث عشر من الشهر التالى ..

خطوته المتزنة ذاتها ، وغابة الشعر فى وجهه كما هى ، والقطط الصامتة تتبعه كأنها فى عزاء لا يصح معه أن تصدر صوتًا ..

هنا قرر (سمير) أن يخبر الجميع عن هذا الأخرس ، وهى حماقة تلقى جزاءها بعض الركلات من أصدقائه الذين لم يصدقوه وصفعتين من كف أمه الثقيل ، التى لم تعد تحتمل هذه القصص التى يختلقها طيلة الوقت ، وهكذا قرر أنه لن يتحدث مع أحد فى هذا الموضوع مرة أخرى ، وأنه سيكتفى بانتظار ظهور الأخرس مرة ثانية ، ليثبت أنه محق ..

وظهر الأخرس فى ليلة الثالث عشر من الشهر التالى ، وقد أشارت الساعة إلى الثانية صباحًا ، فاستعد (سمير) لإيقاظ الكون كله ، ليروا بأنفسهم الأخرس ، وقرر أن يبدأ بأمه ذات الكف الثقيل ، ليريها كم كانت مخطئة ومجحفة فى حقه ، الأمر الذى قد يتطلب منها أن تعتذر له وهو شىء أسطورى مهول ، فلا يوجد لم تعتذر مهما كان السبب ، لكنه توقف أمام باب غرفتها فجأة ، حين دوى الصوت العجوز فى رأسه :

ـ « إياك » !

ورغم صغر سنه أدرك (سمير) من هو صاحب الصوت على الفور ، فقفز فى الهواء فزعًا وألصق كفيه بفمه ليمنع نفسه من الصراخ ..

إنه خلفى .. داخل المنزل ويقف خلفى فى الظلام ..

هذا ما ظنه (سمير) ، لكنه حين التفت أخيرًا لم يجد أحدًا ، فأسرع عائدًا إلى غرفته ، لينظر إلى الأخرس الذى بلغ نهاية الشارع المظلم ، تتبعه القطط التى يتزايد عددها كل مرة ..

لكنه هو .. هو .. إنه واثق أنه صوته ..

صحيح أنه لم يسمع صوت الأخرس قط ، لكنه نام فى هذه الليلة ، وهو موقن أن الصوت الذى سمعه كان صوت الأخرس ، الذى قرر أن يحتفظ بموضوعه سرًا لنفسه ..

وبعد أن تكرر ظهور الأخرس ثلاث مرات متتالية ، تعلم (سمير) أنه لا يظهر إلا ليلة الثالث عشر من كل شهر فى تمام الثانية صباحًا ، وهى ملاحظة متأخرة لكننى أذكركم أن (سمير) مجرد طفل ..

بالطبع لم يحاول (سمير) أن يتساءل عن سر الدقة التى تجعله يمر فى هذا الوقت بالذات مرة كل شهر ، ولو تساءل لما عرف الإجابة التى لم تكن تخطر له على بال ..

فبالنسبة للأخرس كان مروره هذا جزءًا من الدورية التى يقوم بها بانتظام ، بحيث يقطع القاهرة كلها سيرًا على الأقدام طيلة

الليل ، وهى دورية تستغرق منه شهراً كاملاً ، ليكررها بعد ذلك بذات الدقة والانتظام ..

ما لا يعرفه (سمير) أن الأخرس ينفذ دوريته هذه من سبع سنوات ، لكن (سمير) لم يلاحظه إلا منذ عامين ، وما لا يعرفه أيضاً ، أن الأخرس يفعل هذا لأنها مهمته ...

أن يبحث .. وينتظر ..

من أين يأكل ؟ من فضلات الشارع وهى تكفيه هو وقططه .. من أين يلبس ؟ إنها ذات الملابس لم تتغير منذ زمن طويل .. أين ينام ؟ فى الظل ، فهو لا ينام إلا نهاراً .. لماذا يحتمل ؟ لأنها مهمته وهو لم يعتد أن يثق فى أحد سواه ..

الآن أنتم تعرفون لماذا يسهر (سمير) حتى هذا الوقت ، والآن أنتم لا تحتاجون للنظر فى النتيجة المعلقة على الجدار ، لتعرفوا أنه الثالث عشر من هذا الشهر ، والآن يمكنكم النظر مع (سمير) عبر نافذة غرفته ، إلى الشارع المظلم الذى أضاءه القمر بلون شاحب مقبض ، لننتظر الأخرس سوياً ..

إنها الثانية إلا خمس دقائق ، وهذا يعطينى الوقت لأنبهكم إلى ملاحظة جديدة ..

لو نظرتم إلى النافذة المجاورة لنافذة (سمير) ، لرأيتم وجه أمه ذات الكف الثقيل ، ولأشفقتم عليها لشدة شحوبها ، وللرجفة التى تسرى فى بدنها ، وهى تنظر بعينين حمراوين إلى الشارع تنتظر مجىء الأخرس ..

إنها تعرف .. تعرف منذ أن أخبرها طفلها (سمير) ، لكنها كانت تملك تفسيراً مختلفاً ..

إنه (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وهو الوصف الدقيق للجن ، كما أن الوصف الدقيق للسرطان هو (المرض الوحش) الذى لا يصح ذكر اسمه ..

بالطبع جن .. إن لم يكن كذلك فلماذا تتبعه كل هذه القطط ؟ إنها ليست مجرد قطط بالمناسبة ، بل هى قطط سوداء فحسب !

قطط سوداء مخيفة تتبع رجلاً غامضاً لا يظهر سوى ليلاً دون أن ينطق بحرف ، وشعره الفضى المنسدل على وجهه لا يمنحنا ملامح لنصفه بها ، إذن هو وبلاشك من الـ (بسم الله الرحمن الرحيم) .. حمداً لله أن صفعتها لـ (سمير) ساعدته على أن ينسى موضوع هذا الأخرس ، وإلا ربما مسه بشىء ما !

الآن يمكننا أن نتخيل أننا فى ليلة رأس السنة ، وأننا نعد العد التنازلى لبداية عام جديد ، فالأخرس أوشك على الظهور .. بقى عشر ثوان .. تسع .. ثمان .. سبع .. ست .. خمس ..أربع ثوان ثم ..

ثم ألصقت أم (سمير) كفها بفمها ، لتمنع نفسها من الصراخ إذ ظهر الأخرس وهو يعدو ، وقد غطت الدماء شعره الفضى الملتصق بوجهه ، وقد أخذت القطط السوداء الرهيبة تعدو خلفه ، بينما الأخرس يردد وللمرة الأولى بذات الصوت الذى سمعه (سمير) فى رأسه :

- لقد تأخرنا .. تأخرنا ..

حتى (سمير) دسّ الوسادة فى فمه كى لا يصرخ ، وألقى بنفسه على الفراش ليحتمى بالأغطية ، بينما البلل الدافئ يتزايد فى (بنطال) منامته ..

لن أصرخ .. لن أصرخ .. لن أصرخ ..

يرددها (سمير) فى عقله ، وترددها أمه ..

وفى الشارع الضيق يمرّ الأخرس كشبح مخيف ، ثم يختفى دون أن يتوقف لحظة ، فلا تتحرك أم (سمير) من مكانها حتى يختفى آخر قط أسود ..

وحين تتحرك أخيرًا تقرر أن تسقط على ظهرها على الفراش مغشيًا عليها ، بينما (سمير) أسفل الأغطية على فراشه الذى أصبح يحمل بقعة زاهية ذات رائحة خانقة ، يرتجف ويبكى ..

من هو هذا الأخرس ؟! ..

ما الذى يقطعه ؟! ..

وما الذى أصابه ؟!

والأهم من هذا كله .. ما الذى سيحدث ؟! وكيف ينتهى ؟!!

* * *

تردد (مايا) :

- صالامان .. صالامان ..

ترددها ولا تتوقف .. ترددها ولا تتغير .. ترددها ولا نفهم نحن شيئًا ..

إن (مايا) فى الرابعة عشر من عمرها ، وهذا يعنى أنها على أعتاب المراهقة الجميلة ، لكن (مايا) لا تهمس للزهور ، ولا تحلم بالفارس والحصان ، ولا تتنهد وحيدة ..

إنها فقط تردد :

- صالامان .. صالامان ..

إنها رقيقة كالملائكة .. جميلة كالذكريات .. ضئيلة كالأطفال .. لكنها لا تردد سوى (صالامان) هذه كجهاز تسجيل تالف ، وهو الشىء الذى جعلها تحتل الغرفة رقم (٥٤٢) فى مستشفى الأمراض النفسية الخاص فى المهندسين ، وهذا يشى بأنها من أسرة ثرية ، لكنها أسرة نسيتها منذ أن كانت فى الثامنة من عمرها ، ولا تستغرب لو عرفت أن أباها يتساءل كل عدة أشهر عن سر المبالغ التى يرسلها إلى المستشفى ، فتذكره زوجته أنها لعلاج ابنتهم الذى لا أمل منه ..

الأم كانت من لاحظت ، ولهذا قصة طريفة ..

لقد كانت تهدهد طفلتها ذات يوم ، وهي تحاول أن تدفعها لنطق (ماما) ، لتجد أن الطفلة تجاهد لتنطق شيئاً آخر أشبه بالـ (صا آ آن) ، وهي كلمة لاتقترب ولو من بعيد لـ (ماما) بشيء ، لكن الأم هللت وأخذت تحكي للجميع كيف أن طفلتها ستتحدث مبكراً ، فلقد نطقت اليوم أولى كلماتها ..

(صا آ آن) !

ربما كانت تقصد (صدرك آية في الحنان) !!

ومع الوقت تحسن نطق الكلمة لتخرج (صالامان) واضحة لاشك فيها ، وكانت (مايا) قد بلغت الثانية من عمرها ، لكنها لم تسرّ الأم في شيء .. إنها ليست كلمة .. إنها ليست أي شيء مفهوم حتى ..

لكن حين بلغت (مايا) الخامسة ، كانت أمها قد فقدت الأمل في أن تعلمها حرفاً .. أغرتها وضربتها وأقنعتها وعنفتها وبكت وترجت وصرخت وتوسلت ، وفي النهاية لم تخرج منها سوى بكلمة واحدة لا تردد (مايا) سواها ..

صالا ـ عليها اللعنة ! ـ مان !

وحين بلغت (مايا) الثامنة كانت أمها جربت كل السبل بدءاً من العلاج في الخارج وحتى الاستعانة بالدجالين ؛ لذا قررت التصرف

بعملية ، وأودعتها مستشفى (الأمل) للأمراض النفسية ، وقد فقدت كل أمل في شفائها .. لكنها على الأقل لم تعد مسئولة عن هذه المشكلة .. هناك فريق كامل من الأطباء والأخصائيين ، عملوا على فحصها ودراسة حالتها وأجروا مئات الاختبارات والتحاليل ، ليخرجوا بعد ثلاث سنوات بنتيجة نهائية ، وهي أن (مايا) مصابة بنوع من التخلف العقلي غير قابل للشفاء ، وأنهم على استعداد للاحتفاظ بها في المستشفى طالما سيدفعون كل المصاريف بانتظام ..

ولأن الأم عملية للغاية والحق ، وهي تعتبر أن هذه المصاريف هي نوع من الاستثمار ! تخيل كل الوقت والمجهود اللذين كانا سيضيعان في رعاية (مايا) ، وفي الإصغاء المستمر لها تردد بصوتها العذب :

ـ صالامان .. صالامان ..

وحده عم (فهمي) الممرض العجوز الذي كان يعرف هذا كله دون أن يستغربه .. لقد رأى الكثير ولم يعد يملك القدرة على الدهشة ..

وحده من كان يقضي الساعات الطويلة يومياً في الغرفة رقم (٥٤٢) يتحدث إلى (مايا) وهو موقن أنها تفهمه .. إنه يملك وقت الدنيا وصبر الحيتان ، وهو يعرف أنها ستشفى في يوم ما وستغدو طبيعية ؛ لذا كان يدعوها ابنتي ، وكذلك اعتاد جميع من

يعملون فى المستشفى على هذه التسمية ، حتى إن الطبيب الذى يتابع حالتها كان يقول له :

- هل ابنتك بخير اليوم ؟

إن عم (فهمى) لم ينجب ، لكن القدر لم يبخل عليه بهذه الطفلة المتخلفة الجميلة ..

لماذا أحكى لكم هذا كله ؟!

لأن الليلة حدث شىء عجيب غير متوقع .. ومخيف نوعاً ما ..

من رأى المشهد وصفه كالتالى .. عم (فهمى) حمل صينية طعام العشاء وتوجه بها إلى غرفة (مايا) ، ودخل ليغلق الباب خلفه كالمعتاد ، لكنه لم يخرج هذه المرة ..

من رأى المشهد قال إنهم سمعوا صوتاً أشبه بالانفجار ، لكنه ليس كذلك ..

شىء أشبه بالحشرجة أو الصفير أو الشهيق ، وهذا الصوت المريع كان يمتزج بصرخات عم (فهمى) المتتابعة ..

بالطبع اقتحموا الغرفة ليجدوا ذلك المشهد الذى لن ينسوه أبداً .. أنا لم أر المشهد لكن من رآه قال لى إنه لن يفارق كوابيسه أبداً ..

كانت (مايا) على فراشها تصدر ذلك الصوت الذى لا يوصف ، وقد استحال لونها إلى الأزرق الداكن ، بينما نفرت العروق من تحت جلدها كأوتار ، وتبدلت ملامحها لتتحول (مايا) الرقيقة إلى شىء آخر .. شىء مخيف ..

أما عم (فهمى) المسكين فكان ملتصقاً فى الجدار المواجه ، وقد ارتفع عن سطح الأرض وكأن هناك من يحمله ويحاول غرسه فى الجدار ، وقد أخذت صرخاته تخفت تدريجياً ، وإن حملت عيناه دموعاً ، أقسم من رآها أنها دموع إشفاق !

بالطبع لم يجرؤ أحد على الاقتراب ، وبالطبع لم يدم هذا المشهد سوى دقيقة واحدة ، ثم تهاوت (مايا) على فراشها وقد استعادت لونها وملامحها ، وسقط عم (فهمى) على الأرض ووجهه مبلل بالدموع ، وقد غاب عن الوعى ..

ولم يستيقظ أحدهما حتى الآن ..

(مايا) وعم (فهمى) سقطا فى غيبوبة عجيبة متصلة ، ولم تنجح أى محاولة لإفاقتهما حتى الآن ، وهما الآن يرقدان فى غرفة واحدة على فراشين متجاورين ، تتصل بهما عشرات الأجهزة والخراطيم ، ولا يملك من حولهما سوى حكاية سقوطهما فى تلك الغيبوبة ..

لكن تبقى الأسئلة ..

ما الذى حدث بالضبط ؟!

ما الذى أصابهما ؟ ولماذا ؟!

هل سيتيقظان ؟ ومتى ؟!

ومن هى (مايا) حقًا ؟! ومتى ينتهى كل هذا ؟!

* * *

وأخيرًا لماذا يشعر النقيب (رمزى) أن هذه الليلة السوداء لن تنتهى ؟!

إن عائلة (الدهاشمة) قد قتلت رجلاً من عائلة (السيالة) وهذا يعنى أن مذبحة ما ستحدث فى أية لحظة .. مذبحة ستراق لها الدماء أنهارًا ..

صحيح أن الليلة هادئة .. صحيح أن الحاج (مرزوق) كبير عائلة (السيالة) فى طريقه إلى النقطة ليشربا الشاى وليؤجل للنقيب (رمزى) المذبحة القادمة لليلة أخرى .. لكنه يكاد يختنق من شعوره أن هذه الليلة لن تمر على خير ..

مصيبة ما ستحدث بعد قليل .. أو أنها حدثت بالفعل !

* * *

فى البداية يظهر الخدم ..

(١)

تخيل أنك فى ليلة حارة رطبة ، وقميصك يلتصق بجسدك والمروحة الصدئة فى السقف لا تصدر سوى صوت يكاد يدفعك للجنون ..

تخيل البعوض الضخم .. لا ليس الذى تراه هنا .. بل بعوض أكبر وأثقل ذو طنين واضح ولسعة حقيرة ستجعلك تقضى الليلة الرطبة الخانقة تحك جلدك الغارق فى العرق ..

تخيل أيضًا أن هناك رائحة ما خانقة تملأ الغرفة .. هى مزيج لدخان السجائر ورائحة العرق وروث البهائم فى الخارج وتلك العطر الشنيع الذى يضعه الشاويش (عبد الباسط) والذى يلخص مفهومه عن الحضارة والرقى .. إنه يبتاع زجاجة العطر الضخمة بجنيه واحد من الكشك قرب مكتب البريد ، فلك أن تتخيل رائحته ..

تخيل أن سجائرك نفدت وأن الساعة تجاوزت منتصف الليل وأنك تكره عملك كالضابط الوحيد فى نقطة الشرطة الضئيلة فى تلك القرية النائية فى المنيا ، لكنك تجلس تعد الدقائق فى انتظار عجوز غير متعلم لا يعرف إلا أن الثأر واجب وأن الدماء تغسل العار ، وتخيل أن مهمتك هى إقناع هذا العجوز المخرف ألا يبدأ مذبحة ، لا يعرف إلا الله وحده كيف ستنتهى لو بدأت ..

تخيل أنك تعانى من هذا كله لأنك استجوبت ابن مسئول رغم أنه أكد لك أنه (إنت مش عارف أنا ابن مين ؟!) ، لكنك لم تهتم وأكملت الاستجواب لتنتهى الليلة بخروج ابن البيه ، وبك تستلم خطاب نقلك من مصر الجديدة إلى هنا ..

الآن أنت تعرف بماذا يشعر النقيب (رمزى) والآن تفهم لماذا يحاول ألا ينظر إلى مسدسه فى الدرج .. قطرة استفزاز واحدة ، وسيقتل هو كل فرد فى عائلتى (الدهاشمة) و(السيالة) ثم سيفرغ باقى الرصاصات فى رأسه هو !

الآن يقول الشاويش (عبد الباسط) :

ـ الحاج (مرزوق) وصل يا حضرة الضابط ..

فيقول (رمزى) :

ـ دعه يدخل ..

ويغلق الدرج الذى يحوى مسدسه ، ثم يقف ليصافح الحاج (مرزوق) الذى ارتدى تلك العباءة السوداء الشهيرة ، وربط عمامة حول رأسه وقد حملت ملامحه كمًا من التجاعيد يكفى لجيلين متتاليين ، والذى قال بصوت منحه المعسل رنة مميزة :

ـ كنت تريدنى يا حضرة الضابط ..

ـ أردت أن نشرب الشاى ونتحدث ..

ـ لنتحدث إذن فلا وقت لدى لشرب الشاى ..

ثم إنه رفع ذراعيه وقال بلهجة درامية :

ـ كيف أشرب الشاى ودمنا لم يبرد بعد ؟

كأنه يعرض عليه كأس فودكا ! تماسك يا رمزى .. تماسك ..

وقال (رمزى) وقد قام من مكانه ليجلس أمام الحاج (مرزوق) :

ـ القانون قادر على أن يعيد لك حقك .. وعلى حقن المزيد من الدماء ..

ـ هل سيعيد القانون ولدنا الذى ضاع ؟

أجابه (رمزى) بغيظ :

ـ وهل ستعيده أنت ؟

ـ لا .. لكنى سأريحه فى قبره ..

ـ كيف ؟

ـ ابتعد أنت عن هذه الأمور يا حضرة الضابط .. نحن لا نسعى لمواجهتك أنت ..

سأقتله .. سأقتله .. سأقتله ..

ـ كيف تطلب منى الابتعاد وأنا الضابط المسئول عن هذه القرية ؟

- بسيطة .. يمكنك أن تأخذ إجازة لمدة أسبوع ، وحين تعود سيكون كل شيء قد انتهى ..

بدأت أصابع (رمزى) تتجه إلى الدرج الذى يضع فيه المسدس غريزيًا ، وهو يقول محاولاً التماسك :

- حاج (مرزوق) .. أنت تعرف أننى لن أوافق على هذا ..

- وأنت تعرف أننى لن أتراجع ..

- إذن سأضطر إلى منعك .. بالقانون ..

ضحك الحاج (مرزوق) مستهزئًا ، وقال :

- وأين كان هذا القانون حين قتل ولدنا ؟ على أية حال حاول ..

ثم إنه هبّ واقفًا ودقّ الأرض بعصاته معلنًا أن المناقشة انتهت فقام (رمزى) ببطء ليقول ضاغطًا على كل حرف من حروفه :

- لو بدأت المذبحة يا حاج (مرزوق) ، فأقسم أننى لن أتركك إلا وأنت فى زنزانة لن تخرج منها إلا إلى القبر ..

لكن الحاج (مرزوق) لم يهتز للحظة ، بل أجاب :

- بالإذن يا حضرة الضابط ..

ثم إنه غادر المكان وهو يدقّ الأرض بعصاته ، بينما (رمزى) يمنع نفسه بالكاد من أن يمسكه ويشعل فيه النار ليطلقه بين الحقول ..

إذن المذبحة ستبدأ ولا مفر ..

سيهجم رجال (السيالة) على رجال (الدهاشمة) ليلاً ليقتلوهم بالبنادق هم ومواشيهم ، ثم سيشعلون النار فى حقولهم .. ستكون معركة جديرة بكتب التاريخ ، وسيلاقى هو جزاء إهماله الذى سمح لهم بهذه الحرب .. ثانيًا ..

لكن الحرب لو بدأت سيستغل هو وقودها ليشعل فى الجميع .. نعم .. ربما عاد للقاهرة ، ليقتل ابن ذلك المسئول الرفيع الذى تسبب فى نقله إلى هنا ، بعدها سينتحر ..

نعم سينتحر .. تبدو خطة محكمة !

والآن ما عليه سوى الانتظار ..

والآن يسمع (رمزى) تلك الصرخة المخيفة التى ستكون بداية كل شيء بالنسبة له ..

* * *

الرجال لم يسمعوا الصرخة ، فقد كانت الليلة حارة إلى الحد الكافى لتقضيها فى المقهى الوحيد فى القرية ، حيث لا تجد سوى الشاى المغلى وأحجرة المعسل المخلوطة ..

كانت صرخة رجل لكن أداءها كان مختلفًا !

فى أحد الليالى اشتعلت النيران فى منزل الحاج (مسعد) .. كانت زوجته تطهو العشاء ، ويبدو أنها لم تحسن التعامل مع

(الوابور) لتبدأ المأساة .. وحين وصل الرجال وجدوا المنزل قطعة من جهنم ، ووجدوا الحاج (مسعد) كتلة من النيران تتقافز وتصرخ ، لكن صرخاته وهو يشوى حيًا كانت أرق بكثير من تلك الصرخة التى سمعوها الآن ..

لذا لم يحتج أحدهم لتبادل حرف ، قبل أن يندفعوا كلهم تجاه مصدر الصرخة ، حاملين ما تيسر من سلاح ، وكان الصوت قادمًا من ذلك الطريق المظلم الذى يقود إلى نقطة الشرطة ، مما أصاب رجال (السيالة) بالتوتر ، فهم يعرفون أن كبيرهم الحاج (مرزوق) هناك فى النقطة ليقابل الضابط (رمزى) .. لو كان شىء ما أصابه ، ستكون الحرب الليلة ، حتى لو لم يكن للدهاشمة يد فى الموضوع ..

كان بعض الرجال يحملون المشاعل ليتجهز الباقون حولهم ، فالطريق كان مظلمًا أكثر من اللازم وقد غاب القمر من السماء متواريًا خلف الغيوم ، وهكذا أصبح مشهد الجمع المتجه إلى مصدر الصرخة مخيفًا فى الحد ذاته ..

تلك الوجوه الصعيدية الخائفة الغاضبة المتحفزة ، ينعكس ضوء النيران الأحمر على وجوههم ، ليتحولوا إلى قوة طاغية لا تقدر شياطين الليل ذاتها على مواجهتها .. وهى نقطة فى صالحهم ، فهم لا يعرفون أى شىء قادر على جعل رجل يصرخ بهذه الصورة !

دقائق وبلغوا مصدر الصرخة .. وعلى ضوء النيران رأوا ذلك المشهد الذى لن ينسوه أبدًا ..

وفهموا بصعوبة لشدة الهلع كيف أن هناك أشياء قادرة على انتزاع تلك الصرخة من رجل ..

من الحاج (مرزوق) بالذات ..

* * *

لم يكن هناك بشرى قادرعلى قطعها ، لذا لم يوجه (رمزى) اتهامًا لأحد ..

فقط وقف هناك حيث تجمع الرجال حول جثة الحاج (مرزوق) ، بينما طبيب الوحدة يفحص الجثة فى مكانها ويلتقط لها بعض الصور .. صحيح أنهم انتزعوا الدكتور من منزله وقد أوشك الفجر على الانبلاج ، لكن المشهد أطار النعاس من عينيه فى لحظة .. وربما لأيام طويلة قادمة !

وحين انتهى أخيرًا ، وجه نظرة صامتة لـ(رمزى) ، فهز رأسه بتفهم ، ثم صاح فى الجنديين المرافقين له :

- اجمعوا الجثة ..

وهى عملية كانت بسيطة وسريعة .. فالذراع اليمنى كانت جوار الجثة مباشرة ، بينما اليسرى على بعد مترين فحسب .. الساق اليسرى كانت موجودة كذلك ، لكن اليمنى لم تكن هناك ؛ لذا أرسل (رمزى) بعض الرجال ليبحثوا عنها .. لابد أن أحد الكلاب الضالة قد وجدت عشاء الليلة ..

وفى صندوق ضخم استقر جسد الحاج (مرزوق) المكون من أربع قطع منفصلة ، وتم إغلاق الصندوق ووضعه فى (بوكس) الشرطة ، تمهيداً لأن ينقله (رمزى) بنفسه إلى مشرحة المدينة ، حيث يأمل أن يحصل على إجابة لسؤال مقلق ..

أى شيء هذا الذى تمكن من انتزاع أطراف رجل بالغ بهذه الوحشية ؟!

سيترك المدينة .. لكن هذا لم يعد يهم .. سيعلق هذا المشهد فى مخيلة رجال القرية لأشهر قادمة ، ولن يحاول أحدهم الانتقام أو بدء الحرب المتوقعة ..

عقولهم المحدودة ستعزو بالأمر كله إلى القوى الخارقة والشياطين ، فهى وحدها من تجرؤ على صنع ما رأوه ، وهذا يعنى أن الجميع سيلزمون منازلهم حتى يعود ..

نعم الحرب ستنتظره .. لكنه لم يكن يعرف حينها أن ما هو أسوأ من كل حروب الدنيا قد بدأ بالفعل ..

وأنه أصبح جزءًا منه ..

* * *

(٢)

" You've Got 65 New Messages! "

وهو كمّ رسائل إليكترونية ثابت يأتيك كل ليلة ، يحمل إليك الصور المتوقعة .. لا ليست صوراً إباحية ، بل هى للنقيض التام .. صور موتى ..

وهكذا ينقر الدكتور (شريف) على الجملة ، ليبدأ فى فتح الرسائل وتحميل هذه الصور على جهازه ، ليقضى الليل كله فى تفحصها بواسطة برامج الجرافيك التى أصبح يتقنها الآن .. وهى ليست متعته الوحيدة لو كان هذا ما جال فى خاطرك ..

بل إنك قد لا تصدقنى لو أخبرتك أن هذه الصور تصيبه بالغثيان كل مرة ، لكنها مهمته وهو لم يخترها .. بل هى اختارته ..

اختارته حين كان فى العاشرة حين اقترف ذلك الخطأ الذى يقترفه جميع الأطفال فى سن العاشرة .. عبث فى أوراق والده .. خطأ طفولى معتاد من المفترض أن يلقى جزاءه بعض التوبيخ ، وربما صفعتين من باب (كى لا تنسى) ثم ينتهى الموضوع .. لكن فى حالته هو ، دفع حياته القادمة ثمناً لهذا الخطأ ..

صديقه فى المدرسة من أغراه بالعبث فى درج والده .. لقد عثر على مجلة أجنبية تحمل صوراً لا يصح لهم أن يروها فى درجه وهو كنز لا يقل أهمية عن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ..

وهنا يتحرك الفضول وهو أقوى من الغريزة بمراحل ليقوده .. فى سن العاشرة تبدأ التنبيهات والتحذيرات وتبدأ الآباء فى فصل الأولاد عن البنات ، ليتحولن من (تلك الكائنات المقرفة ذات الصوت الحاد) إلى (تلك الكائنات الغامضة ذات الصوت الناعم) وهى تلك المرحلة التى تبدأ فيها الهمسات والأساطير عن الأنثى ، لذا أيقن (شريف) أنه حين سيعود إلى المنزل اليوم سيفتش جيوب والده ذاتها بحثًا عن أى صورة للثمرة المحرمة .. لكنه ولحظه ! عثر على ذلك الصندوق القديم ..

عثر عليه فى خزانة الملابس أسفل كومة من الملابس القديمة .. صندوق متوسط الحجم أسود اللون ذو إطار مذهب عتيق وقفل صغير متين منعه من فتحه تلك الليلة .. كان والده يستحم حينها لذا لم يطل فى محاولاته لفتح الصندوق ، بل قرر إرجاء الموضوع كله ليوم آخر ..

وفى أحد الأيام تظاهر بالمرض كى لا يذهب إلى مدرسته ، وانتظر حتى خلا المنزل إلا منه ومن المفتاح المخبأ فى مكان ما ..

مفتاح ذهبى صغير يفتح قفلاً ذهبياً صغيراً يقود إلى سر الأسرار ..

وبالطبع عثر على المفتاح أسفل حشية فراش والديه فى كيس قماشى صغير ، وبالطبع صرخ من السعادة وهو يحمل المفتاح متجهاً به إلى الصندوق فى خزانة الملابس ، وخياله الطفولى يرسم له الكنوز والشياطين التى ستخرج من هذا الصندوق و ... و ...

وفتح الصندوق يومها ..

وكان هذا بداية كل شىء بالنسبة له ..

* * *

لكنه الليلة ينتظره كم لا بأس به من العمل الشاق وهو وإن اعتاده مع الوقت لم تعتده زوجته أبدًا .. هو يعرف هذا ويتجاهله لأنه يعرف مغبة النقاش فى موضوع كهذا ..

نعم إنه لم يكن هكذا طيلة الوقت ، لكن الوقت اقترب .. إنه يعرف أنه سيعود فى هذا العام بالتحديد وفى هذا الشهر بالذات؛ لذا استعد هو وبدأ فى تفحص صور الموتى منذ عدة أشهر .. يجب أن يعرف فى الوقت المناسب وإلا ..

انتهى من تحميل الصور على جهازه ، ووضعها فى مجلد جديد يحمل تاريخ اليوم ، ثم فتح برنامج الجرافيك الشهير وبدأ فى تكبير الصور بعد أن أعاد تسمية كل صورة وفقًا للمكان التى أرسلت منه .. (الإسكندرية ـ 1) أو (المنصورة ـ 23) وهكذا ..

إن العبء المادى الذى يتجشمه للحصول على هذه الصور هائل حقًا ، وما لا تعرفه زوجته أنه باع قطعة الأرض التى كان يمتلكها ليتمكن من الاستمرار .. آه لو عرفت !

ربما انضمت صورته إلى هذه الصور حاملة اسم (القاهرة ـ 13) فى كمبيوتر شخص آخر ..

(أسيوط ـ 1) .. جريمة قتل مراهقة لسوء السمعة .. الأب فصل رأسها بالفأس ثم سقط جوار جثتها وأخذ يبكى كما هى العادة ، وفى النهاية يكشف التشريح أنها لم تكن ما ظنه الجميع عنها .. صورة مبالغ فيها لكنها تتكرر فوق قدرتك على التخيل .. على أية حال لا تحمل جثتها العلامة المنتظرة ..

(بنها ـ 2) .. عروسان اختنقا ليلة الزفاف تسرب فى الغاز ، وحين زارهما الجميع فى اليوم التالى ، وجدوا جثتيهما الـ .. لاداعى للوصف !

تلك المآسى تتكرر أيضاً وتابع صفحة الحوادث فى أى صحيفة .. المشكلة هنا أن هذين الزوجين حاربا العالم ليتمكنا من الزواج .. حاربا الفقر والظروف والأهل والزمن والفشل ، وانتهى بهما الأمر بليلة واحدة اختنقا فيها حتى الموت .. لأن المصنع لم يحكم إغلاق أنبوبة الغاز ، والمجد للمنتجات المصرية !

كل صورة تحمل قصة رآها مراراً حتى أصبحت معتادة .. والاعتياد يقتل الدهشة ؛ لذا يتعامل مع الموقف كله بفحص تماثيل بلاستيكية ، وهى حيلة يتعلمها جميع طلبة الطب فى العام الأول ..

إنهم يلقون بك فى المشرحة فجأة ، لتجد عشرات الموائد الرخامية ، وقد حملت كل مائدة جثة شاخصة لم تمسها أيدى التشريح بعد ، ورائحة الفورمالين الحارقة تشوى وجهك شياً .. حينها يكون الخيار أمامك أن تتظاهر أن هذه الأجساد عبارة عن دمى .. أو أن تبحث عن كلية أخرى ..

(الإسكندرية ـ 6) .. (أسوان ـ 9) .. (المنصورة ـ 43) .. (بنى سويف ـ 10) .. صور .. صور .. موتى .. قصص .. ولا أثر للعلامة فى أى جثة ..

لا أثر حتى بلغ صورة (المنيا ـ 2) .. تلك الصورة التى استرعت انتباهه منذ اللحظة الأولى فالطريقة التى انفصلت بها أطراف تلك الجثة عن جسدها ، لم تكن طبيعية بالمرة .. ثمة شىء ما قام بانتزاع ذراعى وساقى هذا العجوز بوحشية مخيفة .. وواضح من تعبير الفزع الملتصق بملامح الوجه أنه لم يمت بسهولة .. ولا بسرعة !

ثم إن الساق اليمنى مختفية .. وهذا يذكره بشىء .. أتحمل هذه الجثة العلامة التى طال البحث عنها ؟ أتكون هذه البداية ؟ إنه الآن لا يجرؤ حقاً على فحص هذه الصورة ..

إنه لا يـ ...

« أريد الطلاق .. »

ارتفع صوت زوجته بهذا الخبر الجديد المنتظر ، فانتزع وجهه من أمام شاشة الكمبيوتر ، واستدار إليها صامتاً ، فواصلت :

ـ لم أعد أحتمل .. أريد الطلاق ..

كانت ترتجف وتتحاشى النظر إليه ، فأخذ يرمقها بثبات .. إنها لا تملك سبباً محدداً للطلاق ، لأنه لم يمنحها وصفاً منطقياً لما

هما فيه .. إنها ـ فقط ـ تعرف أنها لا تريد الاستمرار وهو كان يعرف هذا ويتوقعه .. يعرفه منذ أن تزوجا .. يعرف أنه سيتغير وأنها لن تحتمل وحتى لو احتملت ، فلم يكن ليسمح لها بالاستمرار معه ..

إنه يحبها .. نعم .. أحبها منذ طفولته ولهذا لن يسمح لها بالبقاء ..

وحين نطق كان نيران الانفعالات تحرق روحه ببطء :

ـ هذا حقك ..

فاجأها رده فأخذت تحدق فيه ذاهلة .. لقد جاءت إليه بحثًا عن مشاجرة ، علّها تتمكن من كسر صخرة الجليد التى تحيطه .. لكنه طلقها !

بهذه البساطة !

لنصف ساعة لم تنطق هى ولم يتحرك هو .. ثم استعادت رشدها فجأة فأخرجت مخزون زمن طويل فى وجهه ، وهو جالس أمامها يصغى دون أن يرد بحرف ..

إنه يحبها .. يحبها .. يحبها ..

لهذا يجب أن يبعدها عنه ..

وحين انبلج الفجر أخيرًا كانت قد رحلت لتنتظر الورقة التى سيرسلها لها لينهى قصة حبه التى بدأت منذ الطفولة ، والتى انتهت بسبب خطأ اقترفه فى العاشرة ..

وحين عاد للعمل على الكمبيوتر مجددًا ، كانت الدموع تسيل على خديه دون أن يشعر بها .. يجب أن يواصل .. يجب ..

إنه قدره ..

الآن يكبّر الصورة التى تحمل اسم (العنتبا ـ 2) ورجل عجوز تمّ تمزيقه إربًا بوحشية لا مثيل لها .. الآن تظهر العلامة التى انتظرها طويلًا والتى توقعها لكنها فاجأته فشهق فزعًا حين رآها على الجثة ..

الآن يعرف أن الهول ذاته سيبدأ ..

ولن يوقفه أحد ..

* * *

(٣)

« هل يوجد لديكم ذئب فى القرية ؟ »

سأل النقيب (منير) ، فأجاب (رمزى) ببطء :

ـ وهل تمزق الذئاب أطراف ضحاياها الأربعة بهذه الصورة ، ثم تتركها دون أن تأكل منها شيئًا ؟

ـ لكنك تقول إنكم لم تعثروا على ساقه .. هذا يزكى نظرية الذئاب ..

ـ لو كان ذئبًا فطبيبكم الشرعى قادر على أن يخبرنا بهذا ..

لكن الدكتور (أحمد) لم ينته من تشريح الجثة ؛ لذا كان على (رمزى) أن ينتظر فى مشرحة المحافظة محتملاً الرائحة الخانقة ، وذكاء النقيب (منير) المنقرض .. إن (منير) صديق قديم من طراز الأصدقاء الذين لا تتذكر لماذا صادقتهم ، ولا تعرف كيف تتخلص منهم والقدر وحده هو الذى يجمعهما ، يبدو أن جمعهما هذه المرة سيطول ..

ـ أنا واثق أنه ذئب ..

ـ إذن فهو ذئب .. فقط أريد التأكد من الدكتور (أحمد) ..

ـ خبرتى تفوق الدكتور (أحمد) .. صدقنى ..

وقبل أن ينقض (رمزى) على (منير) ليمزقه بأسنانه ، خرج الدكتور (أحمد) من غرفته وهو يخلع قفازه الطبى بعصبية ، فبادره (منير) على الفور :

ـ إنه ذئب .. أليس كذلك ؟

منحه الدكتور (أحمد) نظرة قرف صريحة ، وأشعل لفافة تبغ نفث دخانها بعصبية ، مجيبًا :

ـ من الذى أحضر الجثة ؟

ـ أنا ..

قالها (رمزى) ، فسأله الدكتور (أحمد) :

ـ ما الذى حدث بالضبط ؟!

ـ لقد عثرت عليه هكذا .. سمعنا صراخه وبعدها بدقيقة عثرنا عليه فى هذه الصورة ..

ـ ولم تعثروا على ساقه اليمنى ؟

ـ لا ..

ـ عظيم .. عظيم ..

ثم إنه تركهما وعاد إلى الغرفة تاركًا سحابة من الدخان ، أخذ (رمزى) يحدق فيها بدهشة للحظة ، قبل أن يخرج الدكتور

(أحمد) مجدداً ، وهو يحمل ذراع الحاج (مرزوق) اليسرى ليشير لها بلفافة التبغ فى يده الحرة ، قائلاً بسرعة :

ـ انظرا إلى هذه الذراع .. هل ترى كيف تتدلى الأعصاب والأوعية الدموية منها ؟ هل ترى أنسجة المفصل المتمزقة ؟

قاوم (رمزى) غثيانه وهو يومئ برأسه إيجابًا ، فقال الدكتور (أحمد) :

ـ هذه الذراع لم تقطع .. بل انتزعت .. هناك من جذبها حتى فصلها عن الجثة ، وذلك الشىء مع الذراع الأخرى والساق الموجودة .. ما هو الشىء القادر على فعل هذا ؟ لا أعرف ..

ثم صمت أخيراً ليتبادل نظرة صامتة مع (رمزى) ، بينما تساءل (منير) فى غباء مطبق :

ـ إذن .. إنه ليس ذئبًا ؟

تجاهله الدكتور (أحمد) تمامًا وعاد إلى غرفته ، تاركًا (رمزى) يحاول الإجابة على أهم سؤال فى هذه القضية ..

ما هو الشىء القادر على تمزيق رجل بالغ بهذه الصورة ؟

أو من ؟!

ولماذا ؟!!

* * *

وكان (رمزى) قد قرر قضاء بعض الوقت فى المدينة لحين ينتهى من هذا كله .. إنها فرصة طيبة أيضًا للابتعاد عن جو القرية الخانق المفعم بالرغبة فى الثأر والمواجهات .. لو عاد ووجد أن القرية أفنت نفسها قتلاً وتدميراً ، فلن يأسف كثيراً ..

وهكذا عاد إلى تلك الغرفة التى أجرها فى بنسيون قذر فى المدينة ، ليقضى الساعات بين أقداح القهوة ودخان السجائر ، محاولاً التفكير فيما يحدث من حوله ..

صحيح أنه لا يهتم كثيراً بحياة الحاج (مرزوق) .. بل إن الملاحظة القاسية بأن مقتله أدى إلى تأجيل الصراع تعنى خيراً فى حد ذاتها ، لكن فكرة وجود قاتل طليق لديه القدرة على انتزاع أطراف ضحاياه تؤرقه حقًا ..

ثم لماذا الحاج (مرزوق) بالذات ؟

إنه رجل طاعن فى السن ولا يملك سوى قطعة أرض صغيرة وعائلة ضخمة هى من تصنع له مهابته المزعومة .. فما الداعى لقتله بهذه الوحشية ؟!

ارتفع رنين هاتف غرفته أخيراً لينتزعه من أفكاره ، فمد يده ليلتقط السماعة وليتنبه أن الساعة جاوزت منتصف الليل بقليل ، ولم تكد السماعة تمس أذنه حتى أتاه صوت صاحبة البنسيون خشنًا ناعسًا :

ـ هناك زائر لك ..

ـ زائر ؟!

كان مندهشا .. فلا أحد يعرف أنه هنا ، حتى (منير) فلقد حرص على أن يعرف هذا الفتى بالذات مكانه .. إذن فمن الذى ..؟

ـ هل أتركه يصعد لغرفتك ؟

تسأل صاحبة البنسيون ثم تتثاءب فى وقاحة ، كأنها تلعنه فى سرها على إيقاظها ، فأجاب :

ـ دعيه يصعد إلىّ ؟

ثم أعاد السماعة مكانها وتأكد أن مسدسه فى متناول يده ، وأنه يرتدى ملابس لائقة ، ثم طفق ينتظر زائر ما بعد منتصف الليل ..

دقائق ثم تعالت طرقات خافتة على الباب ، فهبّ ليفتحه بسرعة متوقعًا مصيبة ، لكنه وجد نفسه أمام رجل ضئيل الجسد يرتدى نظارة طبية أنيقة ويرتدى ملابس لا تنم عن الثراء ، وإن بدا مرتبكًا خجولاً بصورة مبالغ فيها ، حتى إن الكلمات خرجت منه بصعوبة :

ـ عذرًا .. وقت متأخر .. أعرف .. أرجو ألا أكون قد أيقظتك ..

ـ من أنت ؟

قالها بصرامة بوليسية فتضاعف ارتباك الزائر الغريب :

ـ أنا .. الدكتور (شريف) .. من القاهرة .. كنت أود التحدث معك ..

ـ عن ماذا ؟

ـ هل ستسمح لى بالدخول أم ...؟

تردد (رمزى) لحظة ، ثم قرر أنه لا خطر من هذا الضئيل ، فتنحى جانبًا ليدخل (شريف) مطأطئ الرأس فى حرج ، وظل واقفًا حتى أغلق (رمزى) الباب وأشار له بالجلوس ، قائلاً :

ـ ابدأ ..

كان يود الانتهاء بسرعة خاصة أنه شعر بنعاس مفاجئ ، هو الذى لم ينم منذ يومين إضافة إلى كل المجهود الذى بذله طيلة هذه الفترة ، لكن (شريف) كان مرتبكًا للغاية وهو يقول :

ـ أعرف أن الوقت غير لائق .. لكن الموقف لا يحتمل تأجيلاً ..

ـ لتبدأ إذن ..

ـ أنا هنا بخصوص تلك الجثة التى نقلتها اليوم للمشرحة .. جثة الحاج (مرزوق) ..

كانت هذه البداية كفيلة للقضاء على النعاس وعلى الهدوء فى نفس (رمزى) الذى صاح على الفور :

ـ أنت تعرف الحاج (مرزوق) ؟!

ـ لا .. لكنى رأيت جثته .. أنا طبيب شرعى .. أعتقد أننى اخترت البداية الخطأ .. أنا هنا لأننى أعرف ما الذى أصاب الحاج (مرزوق)

هنا وقف (رمزى) ذاهلاً وهو يردد :

- تعرف ؟! كيف ؟!

تمالك الدكتور (شريف) نفسه أخيراً ليقول :

- شىء واحد يجب أن أتأكد منه أولاً .. فى الصورة التى رأيتها كانت ساق الحاج (مرزوق) اليمنى غير موجودة .. هل عثرتم عليها ، أم .. ؟

- لم نعثر عليها ..

- هذا يثبت أن الأمر بدأ ... سيد (رمزى) .. أعتقد أنه من الأفضل أن تجلس وتصغى لى جيداً ، فما سأحكيه لك الآن سيطول وأخشى أنك لن تحتمل ما ستسمعه ..

جلس (رمزى) لا شعورياً ، فجذب (شريف) نفساً طويلاً ، حبسه فى صدره للحظات ثم أطلقه فى زفرة طويلة حارة ، و ... و ...

وبدأ يحكى ..

* * *

مفتاح ذهبى صغير يفتح قفلاً ذهبياً صغيراً يقود إلى سر الأسرار ..

لكن (شريف) الطفل حين فتح الصندوق عرف أن هناك أسراراً ما ينبغى لأحد أن يعرفها ، وفى حالته هذه بالذات ما كان لإنسى أن يعرف هذا السر أبداً ..

إن يديه لا تزالان تتذكران ملمس الصندوق البارد ، إذ فتحه للمرة الأولى ليجد ذلك الكتاب المهترئ ذا الغلاف الجلدى الأسود والصفحات السوداء الكئيبة .. أنسجة شىء ما وأتربة أحاطت بالكتاب لتؤكد أن أحدهم لم يفتح هذا الصندوق منذ زمن طال ، ورائحة ما اخترقت أنف (شريف) ودفعته للتراجع فى نفور ، لكن فضوله الطفولى عاد يمتلك زمام السيطرة ، ليقترب من الصندوق وليخرج الكتاب منه ليحمله بين يديه ..

كتاب ضخم كان .. أكبر من أى كتاب أمسكه من قبل ولم يحمل غلافه أى عنوان أو رسوم مما جعله أشبه بأجندة عتيقة ، لكن الشىء العجيب فى هذا الكتاب ، كان صفحاته السوداء الجافة التى لم ير (شريف) مثلها قط ..

وحين فتح الكتاب أخيراً تنهد ..

صوت تنهيدة عميقة خرجت من الكتاب ، ودفعت (شريف) بأن يلقيه على الفراش كالملدوغ وهو يقفز للوراء مفزوعاً ..

لا بد أننى أهذى .. إنها التخيلات كما أكد له والده حين شعر (شريف) بمن يتحرك أسفل فراشه فى إحدى الليالى ، ليملأ الليل صراخاً والفراش بقعاً زاهية .. لا شىء هناك .. الكتاب لم يتنهد ، وهو لن يبلل ملابسه مجدداً فى هذه السن ..

إنه الآن رجل فى العاشرة !

اقترب بحذر وأمسك بالكتاب ليقلبه .. كانت الصفحات السوداء خالية تماماً من أى حرف أو نقش ، فأخذ يقلب فى الصفحات بحذر وتردد ، ثم بسرعة وفضول بحثاً عن أى شىء يقرؤه أو يراه ، لكن الصفحات السوداء الخالية أجابته ببرود أن لا شىء هناك ..

لا شىء على الإطلاق .. كل هذا المجهود بلا طائل ..

بالطبع أعاد الكتاب للصندوق وأغلقه ، ثم أعاد كل شىء كما كان والإحباط يخنق قدرته على التفكير ، فلم يجد أمامه سوى أن ينام ليضيع الوقت ، خاصة أنه لا يوجد أحد فى المنزل ولن يطالبه أحد بالاستيقاظ للمذاكرة ، وهكذا عاد إلى غرفته ليغلق الستائر والباب ، وليندس أسفل الأغطية محاولاً النوم ، وهى لم تكن مشكلة بالنسبة لطفل فى العاشرة ، فما عليه سوى أن يغلق عينيه و ... سوف .. لقد نام بالفعل !

وفى الحلم رأى نفسه يمسك بمفتاح ذهبى صغير وأمامه صندوق أسود قديم ذو إطار ذهبى وقفل ذهبى صغير ، فمد يده ليفتح الصندوق وليخرج منه الكتاب الأسود ذا الصفحات السوداء ..

لكنه حين فتح الكتاب هذه المرة كانت الحروف تضىء فى الصفحات ، لينعكس ضوءها على وجهه الذاهل ، ويداه تقلبان فى

صفحات الكتاب ببطء وبلا توقف .. حروف عجيبة أشبه بالرموز وكانت كلها تشع من الصفحات السوداء لتترك انعكاسها فى مخه مباشرة ، وبصورة ما لم يفهمها قط ، وجد نفسه يفهم ما يقرؤه ..

يفهمه ويسمعه ويراه .. وفى حلمه وعلى فراشه أخذ (شريف) يرتجف بشدة ..

لقد كانت الصفحات تحكى قصته .. قصة الذى لم يمت ..

* * *

(٤)

وكان يعرف أنه لن يخبر أحداً بما حدث ..

حين استيقظ فى هذا اليوم كان العرق يغمره وكانت عظامه ذاتها ترتجف ، وكان قد عرف كل شىء ، لكنه كان يعرف يقيناً أنه لن يخبر أحداً بما حدث ..

حتى فى سن العاشرة ، كان يدرك أنه لا يجب أن يعرض أحداً للخطر ، وكان يدرك أن مهمته ستبدأ فى مرحلة معينة ..

صحيح أنه تزوج المرأة التى يحب ، لكنه كان واثقاً أن زيجته لن تستمر .. لا يمكن لمن يملكون قدره أن ينجحوا فى زواج ولا أن يحظوا بذرية ، إن قدره يقوده لما هو أهم ، وهو لا يملك الاعتراض .. ولهذا اتجه إلى الطب الشرعى وانتظر حتى اقترب الوقت ، ليبدأ هواية تفحص صور الموتى هذه ..

حين تظهر العلامة وهى حتماً ستظهر ستكون المرحلة الأولى فى عودة (الذى لم يمت) قد بدأت .. وحينها يجب عليه أن يستعد ..

فحين تبدأ المرحلة الثانية سيكون عليه التدخل ...

وإلا ...

* * *

- إننى لا أفهم شيئاً ..

قالها (رمزى) بعصبية وهذا حقه .. إن ما يسمعه أغرب من قدرته على الاحتمال ..

وبتؤدة عاد (شريف) يكرر :

- أقول إن جثة الحاج (مرزوق) هذه تحمل علامة تؤكد أن (الذى لم يمت) سيعود قريباً .. ووفقاً لما أعرفه ستكون هناك جثتان ثانيتان تحملان ذات العلامة قريباً ، بعدها سيكون علينا التدخل ..

- أى علامة ؟ ومن هو (الذى لم يمت) هذا ؟

- العلامة هى تلك الخطوط الذهبية على الجثة .. أما بالنسبة لـ (الذى لم يمت) فهذه نقطة يصعب شرحها .. فأنا لا أعرف شيئاً عنه ، لكننى .. لكننى رأيته ..

صاح (رمزى) :

- أين رأيته ؟

- فى ذلك الحلم الذى حلمت به حين وجدت الكتاب الأسود .. أبى ورث ذلك الصندوق وداخله الكتاب ولم ينجح فى فتحه قط ، لكنه - عملاً بوصية جدى - احتفظ به حتى جاء اليوم الذى تمكنت أنا من فتحه ، لأعرف فى ذلك الحلم الذى حلمته أن هناك شخصاً مقدراً لهذه المهمة وهذا الشخص هو أنا .. أنا من كان قدره أن يفتح الصندوق ليعرف كل ما عرفته ، ولتبدأ مهمتى ..

- أى مهمة ؟!

- منع (الذى لم يمت) من العودة .. هذا الـ ... الـ ... الشىء كان على أرضنا فى أحد العصور الغابرة .. عصر لا تعرف عنه كتب التاريخ شيئاً ، وهناك من حاربوه وتمكنوا من سجنه فى مكان ما ، لكن التعاويذ التى استخدموها لسجنه ستفقد مفعولها قريباً ، وهى نقطة كان يعرفها من سجنوه ، لذا صنعوا هذا الكتاب الأسود على ألا يفتحه إلا من له القدرة على المساعدة ، عبر هذا الكتاب عرفت موعد انتهاء عمل التعاويذ التى تسجن (الذى لم يمت) تقريباً ، ولقد أوشك الوقت بالمناسبة ، لهذا تمكن (الذى لم يمت) من إرسال خدمه ليتخلصوا من آخر نسل الحراس الثلاثة الذين وضعوا التعاويذ على سجنه .. الحاج (مرزوق) كان آخر واحد فى نسل أحد الحراس الثلاثة ، ولهذا أخبرتك أنه ستكون هناك جثتان ثانيتان ، بعدها سيكون على (الذى لم يمت) التخلص من الشخص الوحيد فى هذا العصر القادر على هزيمته ، لتعود الأرض له .. أرضنا ..

هزّ (رمزى) رأسه متفهماً ، ثم اتجه إلى باب الغرفة ليفتحه ، قائلاً :

- اخرج قبل أن أهشم رأسك ..

- لكن ..

- لا أعرف كيف واتتك الشجاعة لتضيع وقتى بكل هذه التخاريف عن (الذى لم يمت) والعلامة والخدم ، لكنى أؤكد لك أنك إن لم تخرج الآن فسوف ..

لكن (شريف) تجاهله تماماً وهو يخرج من طيات ملابسه لفافة قماشية ، فضها ليخرج منها ما أخرس (رمزى) على الفور .. كتاباً أسود عتيقاً ذا صفحات سوداء عجيبة خاوية ..

ببطء وضع (شريف) الكتاب على المنضدة المجاورة للفراش ، وقال :

- اقرأه .. أعرف أنك لن تصدقنى الآن ، لكن قدرك أن تنضم لمن سيحاولون منع (الذى لم يمت) .. هناك أشياء لا أقدر على شرحها ، لذا ربما من الأفضل أن تراها بنفسك ..

ثم وبهدوء تام غادر الغرفة وأغلق الباب وراءه ، ليترك (رمزى) يحدق فى الكتاب الأسود وقد بدأت حيرته تصيبه بدوار ..

(الذى لم يمت) سيعود وعليه أن يساعد فى منع هذا من الحدوث !

كل شىء فى الكتاب الأسود ، فلم لا يلقى بنظرة علّه يجد شيئاً يستحق .. عجيبة هى تلك الأوراق السوداء التى صنع منها الكتاب .. ملمسها عجيب ورائحتها أعجب ، لكنها خاوية تماماً ..

لا كلمة ولا نقش ولا رسم ..

إن ما يشعر به الآن هو الإرهااااااااااااااق ..

سينام قليلاً وسيستيقظ وقد استعاد قدرته على التفكير وحينها ..

* * *

منذ متى والضباب أسود ؟!

ضباب .. ضباب .. ضباب ..

كل ما حوله أسود خامل مقبض خانق ولا يدرى متى ولا كيف وصل إلى هذا المكان .. كل ما يشعر به (رمزى) الآن هو أنه يختنق .. يختنق كأن الضباب يعتصره ..

ضباب .. ضباب .. ضباب .. ولا شىء سوى الضباب ..

لكن لا .. ثمة ضوء قادم من بعيد .. فقط لو تحرك تجاهه .. وهكذا بدأ (رمزى) فى زحزحة ساقه إلى الأمام ليشعر وكأنه يجر وراءه مقطورة هائلة .. إن ساقه لتزن أطناناً بالتأكيد ، لكنه يجب أن يتجه إلى الضوء .. لماذا ؟ لأنه لا يوجد سواه ليذهب إليه ..

الساق الثانية ... إلى الأمام قليلاً .. هذا أفضل .. والآن الساق الأولى .. هكذا تولد الخطوات ببعض الإصرار والكثير من المشقة ..

ومع الخطوات بدأ مصدر هذا الضوء يتضح ، لكن المكان ذاته ظل مغلفاً بالظلال .. كان عموداً من الضوء يسقط من أعلى على مذبح صخرى خاو ، وقد وقف حول المذبح ثلاث كهنة اتشحوا بالسواد وقد أخفت عباءاتهم والظلال التى تلف ملامحهم تماماً ..

وكانوا يتحدثون بلا صوت .. المكان كله لم يصدر أى صوت من أى نوع وكأنما فقد (رمزى) قدرته على السمع ..

يقترب ببطء أكثر وأكثر والمشهد أمامه يكاد يكون ثابتاً إلا من حركة شفاه أحد الكهنة .. يقترب حتى يرى ذلك الشىء الذى يتموج على سطح المذبح ..

شىء ما شفاف متموج لكنه على هيئة رجل لو كان الرجال يتجاوزون المترين طولاً .. رجل خفى يتموج على المذبح والكهنة يتلون عليه تعاويذ بلا صوت ..

وفجأة استعاد (رمزى) قدرته على السمع لتدوى التعاويذ التى يرددها الكهنة فى أذنه كالطبول ، ولينتفض جسده متوقفاً عن التقدم ..

تعاويذ بلغة عجيبة لم يسمع مثلها قط ، ولم يفهم منها حرفاً .. لغة وجدت قبل أن توجد الحضارة .. قبل أن يولد الأمل ..

ومع التعاويذ بدأ جسد الرجل الممدد على المذبح يظهر .. ببطء ببطء يظهر .. وببطء ببطء يراه (رمزى) .. وببطء ببطء بدأت خلايا عقل (رمزى) تستوعب حقيقة ما يراه ..

كان يريد أن يشهق .. أن يصرخ .. أن يبكى هلعاً .. لكنه ظل هناك واقفاً كتمثال والحقيقة تتجسد أمامه ببطء ، ليفقد أى قدرة على التحكم فى جسده ..

إنه يراه الآن .. يرى (الذى لم يمت) !

إنه حقيقى .. إنه .. إنه أمامه !!

ثم بدأ الكهنة الثلاثة فى التحرك ليقف أحدهم عند رأس المذبح بينما وقف الاثنان الآخران على جانبيه و رفع الثلاثة أذرعهم وقد علا صوتهم بالتعاويذ لترتجف كل خلية فى جسد (رمزى) الذى حمل وجهه الرعب خالصاً بلا أية إضافات ..

الدكتور (شريف) لم يكذب .. إنه .. إنه الهول ذاته !

صوت الكهنة يعلو .. ويعلو .. ويعلو ..

إن تعاويذهم الآن لم تعد كذلك .. بل هى شىء أشبه بالصراخ ..

و .. وفجأة اختفى (الذى لم يمت) من على طاولة المذبح ، ثم ظهر فى أقل من لحظة على بعد سنتيمترات قليلة من (رمزى) الذى سالت الدموع من عينيه لا إرادياً من هول ما رأى ..

وحين تحدث (الذى لم يمت) خرجت أنفاسه تلفح وجه (رمزى) برائحة القبور ، وخرج صوته يحمل رهبة الموت ذاته :

ـ أنت .. أنت ورفاقك ستهلكون ..

ثم غرس (الذى لم يمت) يده فجأة فى صدر (رمزى) ، ليشعر بالأصابع الرهيبة تحيط بقلبه !

ـ أنت بالذات .. سأنتزع قلبك ..

وشعر (رمزى) بالألم الرهيب فوق قدرته على التحمل وبضربات قلبه تخفت وتتباعد وأن روحه تكاد تفارق جسده ، لكن الكاهن عند

رأس المذبح ضرب سطحه الحجرى بقبضته ليتموج السطح الحجرى كأنه صفحة ماء ؛ لينجذب (الذى لم يمت) فجأة بآلاف القبضات الخفية إلى السطح المتموج ، وليغوص فى أعماق المذبح الذى استعاد صلابته ما إن اختفى (الذى لم يمت) فيه ..

وأخيراً انهار (رمزى) على ركبتيه وأخذ يرتعش كأنما الثلوج تغلفه بلا رحمة ..

وأمامه جمد المشهد مرة ثانية ، قبل أن يتحرك الكاهن عند رأس المذبح تجاهه بخطوات وئيدة وملامحه لا تزال مدفونة فى الظلال لتدوى خطواته بألف صدى ..

وحين بلغ (رمزى) أزاح العباءة عن وجهه ، ليجد (رمزى) نفسه أمام رجل مسن ذى شعر أبيض طويل السدل على كتفيه فى أناقة مفرطة ، وقد ارتدى الكاهن أسفل عباءته زياً عجيباً لم ير (رمزى) مثله قط ..

وفى عينى الكاهن رأى (رمزى) الطمأنينة فى بحر العينين الزرقاوين ..

وبهدوء ربت الكاهن على كتفه ، ليقول بالعربية وبصوت ذى ثقل :

ـ يجب أن تمنعه من العودة .. سيحين دورك قريباً ..

ثم استدار الكاهن ببطء وعاد يبتعد وقد أخذ الضباب الأسود يزداد كثافة فجأة ، ليأتى صوت الكاهن بعيداً يحمل وهن الماضى :

ـ ارحل الآن ..

وازداد الضباب الأسود كثافة أكثر فأكثر ، ليعود اللون الأسود هو الشىء الوحيد الذى يراه (رمزى) الذى بدا وكأنما فقد عقله ..

ضباب .. ضباب .. ضباب ..

ثم ينتهى كل شىء كما بدأ ..

* * *

وفى صباح اليوم التالى استيقظ (رمزى) ..

العرق يغمره والدموع جافة على وجنتيه وروحه ترتجف فى جسده ..

لقد رأى .. لقد عرف .. لقد فهم ..

فتح قميصه بلهفة فوجد آثار اليد الرهيبة على صدره فانتفض .. لم يكن الأمر مجرد حلم ..

رباااه .. لقد تأخر الوقت كثيرًا !

لكن صوت الطرقات المرتبكة على بابه ارتفع ، فهب يفتحه وهو يعرف صاحب هذه الطرقات ..

وأمامه وقف الدكتور (شريف) وقد بدا أنه لم ينم للحظة طيلة الليلة الماضية ، ليسأله :

ـ والآن ؟!

وعلى الرغم من جفاف حلقه أجاب (رمزى) :

ـ أنا .. معك ..

قالها فغرس الدكتور (شريف) أصابعه فى رأسه ، ليقول بأسف :

ـ سنذهب للقاهرة إذن .. لقد وصلتنى صورة الجثة الثانية ..

* * *

(٥)

والجثة الثانية كانت للمهندس (أكرم المصرى) الذى يعيش فى ذلك الحى الهادئ فى مصر الجديدة ، مع زوجته التى لم يدم على زواجهما سوى ثلاثة أشهر ..

والذى حدث بالضبط كان كالتالى ..

فى الساعة الثانية صباحًا استيقظ (أكرم) وهو يشعر بجفاف عجيب فى حلقه والعرق يغمره ، فبحث عن زجاجة المياه التى اعتاد أن يضعها جوار الفراش ليجدها فارغة .. لقد نسى أن يملأها رغم أن هذه هى سابع ليلة له يستيقظ فيها شاعرًا بأن الرمال تملأ فمه وأنه يحتاج للمياه .. للمياااااه !

إنه يحلم بالكوابيس رغم أنه يستيقظ كل مرة دون أن يتذكر شيئًا عما كان يحلم به ، لكن زوجته أخبرته أنها الكوابيس وهو لن يجادلها ، فأى زوج حديث يعرف أنه من الحكمة ألا تجادل زوجتك فى بداية حياته وإلا أصبحت هذه هى القاعدة .. لتكن الكوابيس أو الجفاف أو الفشل الكلوى .. المهم أنه يجب أن يستيقظ كل ليلة ليشرب كالحيتان ..

وفى هذه الليلة فتح عينيه لتتسع حدقتاه مع ظلام الغرفة ، ثم أخذ يعبث بيده جوار الفراش بحثًا عن زجاجة المياه ليجدها خاوية ، فتنهد بملل .. سيترك دفء الفراش إذن ..

ضغط على زر الإضاءة جوار الفراش ليؤلم الضوء عينيه المرهقتين ، ولتتململ زوجته فى الفراش وهى تحل من وضعها لتبعد وجهها عن هذا الإزعاج ، ثم استجمع هو إرادته ليغادر الفراش عازمًا على أن يفرغ كل زجاجات المياه الموجودة فى جوفه ..

بخطوات متثاقلة خرج إلى الردهة ليصطدم فى طريقه بأحد المقاعد وليعيد زوجته مجبرة إلى أرض اليقظة ، ففتحت هى عينيها ثم أغلقتهما بقوة بعد أن اخترق ضوء الغرفة رأسها كالسهام .. هذا الأحمق ! لماذا ترك مصباح الغرفة مضاءً ؟!

إنها تسمع خطواته المتثاقلة .. تسمعه يرتطم بمقعد آخر كأنه سائق أرعن يسير وسط الغابات .. ثم تسمع صوت باب الثلاجة وصوت زجاجة المياه الأولى وهى تنسكب فى فم زوجها بلا توقف ..

هذه سابع ليلة يستيقظ فيها ليشرب وهذا يبعث على الاستغراب فى أول يومين ، ثم على السأم من الاستيقاظ وسط الليل فى باقى الأيام .. أى كوابيس هذه التى تؤرقه كل ليلة ؟!

إنه لم يعد يأكل فى الليل كما نصحته ، فهى اعتقدت أن العشاء الدسم هو السر وراء هذه الكوابيس ، لكن هذا لم يجد معه فتيلاً ..

والشىء الثانى هو أن ..

فجأة تذبذبت الإضاءة وأصدر مصباح الغرفة أزيزًا سخيفًا ليعيدها إلى اليقظة أكثر وأكثر .. مدت يدها إلى مصباح الإضاءة ، لكن المصباح

انطفأ قبل أن تمس زر الإضاءة بيدها ، فلم تشغل بالها طويلاً .. يمكنها الآن أن تعود لأرض الأحلام و ...

ولكن زوجها الأخرق أسقط زجاجة المياه على الأرض ليدوى الصوت هائلاً فى صمت هذا الوقت المتأخر من الليل ..

نادت عليه ساخطة لكنه لم يجبها ، فكررت النداء لتسمع صوتاً عجيباً قادماً من الردهة ..

صوت شىء ما يتمزق !

للمرة الثالثة نادت على زوجها وقد بدأ القلق يولد فى أعماقها وينمو بصورة غير طبيعية ، لكن صوت التمزيق استمر من الردهة دون أن يجيبها زوجها أبداً .. هذا الظلام اللعين !

هكذا قررت أن تضحى بدفء الفراش هى الأخرى ، وسارت بقدميها الحافيتين ، متلمسة طريقها إلى الردهة ، لكنها لم تكد تبلغ باب الغرفة حتى توقف الصوت العجيب ..

نادت على زوجها بعصبية هذه المرة ، ولم يأتها رد .. فقط صمت الليل الهائل .. فواصلت طريقها بتردد والقلق فى أعماقها يكتمل نموه ليتحول إلى خوف ..

ثم شعرت بقدمها الحافية تمس سائلاً دافئاً عجيباً على الأرضية ، فصرخت هذه المرة صرخة مكتومة وانحنت على الأرض لتتحسس السائل الدافئ بيدها متسائلة عن مصدره ..

بقعة ضخمة من السائل الدافئ اللزج ثم اصطدمت يدها برأس زوجها ولمست أسنانه عبر فمه الفاغر إلى الأبد ، وفى نفس اللحظة عادت الإضاءة كما كانت إلى غرفة النوم ، لتنير الردهة عبر باب الغرفة المفتوح ..

فى هذه اللحظة رأت الزوجة رأس زوجها المقطوع على الأرض وسط بركة الدماء ..

فى هذه اللحظة رأت وصرخت !

صرخت .. وصرخت .. وصرخت ..

* * *

بالطبع اقتحم الجيران الشقة ليتبدى المشهد الرهيب للجميع كأوضح ما يكون ..

وكلهم لاحظوا أن جثة (أكرم) الممزقة كان ينقصها الذراع الأيمن ..

اتصل أحدهم بالشرطة فجاءت لتقضى الليلة فى المنزل الذى لم يعد هادئاً ، وتطوع أحد الجيران لينقل الزوجة التى أصيبت بانهيار عصبى إلى المستشفى .. المعمل الجنائى سيأتى بعد ساعات وسيجيب على أسئلة كثيرة ، لكن السؤال الوحيد الذى لن يعرف أحد إجابته أبداً هو (لماذا ؟!) ..

بعد ساعات سيأتى رجال المعمل الجنائى وسيأتى معهم اثنان يعرفان الحقيقة ، أو جزءاً منها ..

(رمزى) و(شريف) ..

* * *

ويقول (شريف) فى إرهاق :

ـ لقد قرأت الكتاب أكثر من مرة .. الكتاب الأسود ..

كانا فى سيارة استأجرها (رمزى) فى طريقهما إلى القاهرة ، وكان من الواضح أن (شريف) يغالب النعاس الذى يهاجمه بشراسة .. سأله (رمزى) الذى لم تفارقه آثار الصدمة بعد :

ـ هل يقرأ الكتاب أكثر مرة ؟

ـ أكثر مما تتخيل .. وفى كل مرة كنت أحلم بشيء مختلف ، وكنت أعرف المزيد .. هكذا عرفت أن (الذى لم يمت) سيعود فى هذا العام ، وأنه سيرسل خدمه ليقتلوا الأحفاد الثلاثة تاركين علامتهم .. البحث عن العلامة كان مرهقًا للغاية .. مبالغ طائلة أخذت أدفعها لأشهر طويلة لعمال فى كل مشرحة فى مصر ، كى يصوروا لى الجثث ولكى يرسلوا لى الصور يوميًا ، لأقضى أنا كل ليلة أتفحص فى صور الموتى .. وفى النهاية دفعت الثمن ..

ـ أى ثمن ؟

ـ زوجتى لم تعد تحتمل ... لكم أحبها .. لكنى لم أملك الخيار ، وهى لم تطق هذه الحياة .. لقد طلقتها أمس لكى أرحمها من هذا العذاب .. المثير للسخرية إن ظهور الخدم أخيرًا أنقذنى من الإفلاس .. كل المبالغ التى كنت أدفعها ..

وتثاءب بقوة ، فانتظر (رمزى) حتى انتهى ليسأله :

ـ هكذا عرفت أن هناك جثة ثانية ؟

أجابه (شريف) وهو يسند رأسه لزجاج النافذة :

ـ وصلتنى صورته أمس .. هذه المرة لم يجدوا ذراعه اليمنى ، لكن العلامة الأهم كانت تلك الخطوط الذهبية فى جلده .. إنها تكاد تكون خفية ، لكنها موجودة .. يجب أن تدقق جيدًا لتراها ..

ـ وما هى هذه الخطوط بالضبط ؟!

ـ إنها الحشرة التى يتركها الخدم فى جلده .. حشرة ذهبية لا وجود لها إلا فى الجثث التى يتركها الخدم .. نوع من الإمضاء يثبت أن الخدم هم من قتلوا هذه الضحية .. ونوع من الإنذار لنا أيضًا ..

قالها ثم أخرج من جيبه كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا مغلقًا بإحكام ، وقد احتوى على قطرات من سائل ذهبى عجيب ، وقال :

ـ لقد زرت المشرحة الليلة الماضية وتمكنت من استخراج هذه الحشرة من جلد الحاج (مرزوق) ووضعتها فى سائل حافظ ليتلون بلون الحشرة ..

نظر (رمزى) للكيس باشمئزاز ، فأعاده (شريف) إلى جيبه قائلاً :

ـ فكرت أن فحصها قد يقودنا إلى شيء ما .. لكنى أحتاج لعالم حشرات مختص ليفحصها لنا ..

ـ أعرف واحدًا فى القاهرة .. ذكرنى أن نمرّ عليه ..

ثم عاد (رمزى) إلى صمته الشارد ، فربت (شريف) على كتفه بتعاطف ، وقال :

ـ أعرف ما تمرّ به تمامًا .. لكن يجب أن تتجاوز صدمتك سريعًا ..

هزّ (رمزى) رأسه دون أن يجيب محاولاً بصعوبة بالغة التركيز على الطريق أمامه .. إنه لن يخبر الدكتور (شريف) بذلك الألم الذى يشعر به فى صدره .. بالتحديد عند آثار اليد الرهيبة على صدره ..

« *أنت بالذات سأنتزع قلبك !* »

إن السؤال ليفرض نفسه رغمًا على الجميع .. ترى هل سينجو من هذا كله ؟!

أم إن هذه هى نهايته ؟ سينتزع (الذى لم يمت) قلبه كما قال ؟!

وماذا لو فشلوا ؟ أى هول ستراه الأرض لو عاد ؟ لقد رأى بنفسه ما قد يحدث .. رآه فى عينى (الذى لم يمت) مباشرة !

كيف سيواجهونه أصلاً ؟ وما الذى يملكونه ليهزموه ؟!

وكيف ينتهى هذا كله ؟!

كيف ؟!

* * *

(٦)

حين وصلا أخيرًا كان رجال المعمل الجنائى قد أنهوا عملهم وبدءوا يجمعون معداتهم تمهيدًا للرحيل .. وكان الضابط المسئول هذه المرة من الطراز المتساهل ، فسمح لـ (رمزى) و(شريف) بتفحص الشقة على ألا يحركا شيئًا ، وأن يذهبا للمشرحة لفحص الجثة فيما بعد وكان هذا أكثر مما يتمناه (شريف) ..

ما عليهما فعله الآن هو البحث عن أى طرف خيط قد يقودهما للضحية الثالثة ، وهى مهمة تحتاج لمعجزة ، خاصة وأن (شريف) يكاد يفقد الوعى فى أية لحظة لفرط إرهاقه ، لدرجة أن (رمزى) قال له فى إشفاق :

ـ يمكنك أن تغفو هنا قليلاً ..

ـ لا وقت لذ ...

ـ لن يمكنك أن تواصل بهذه الطريقة .. بضع ساعات وسأوقظك ، صحيح أنها ليست شقتنا لكن لا أحسب أحدًا يمانع أو يأتى بعد ما حدث ..

وهكذا فكّر (شريف) أنه ربما لا ضير من بعض ساعات فى الفراش .. صحيح أنه سينام فى فراش المهندس (أكرم) الذى يرقد الآن على منضدة التشريح فى صورة قطع لم تعد متلاصقة ، لكن (رمزى) على حق .. إنه يحتاج للنوم كى يصفو ذهنه ويستعيد قدرته على التفكير واتخاذ القرار ..

وحين احتوى الفراش جسده لم يشعر إلا بالـ ... الأحلاااام !

أما (رمزى) فجلس وحيدًا فى الردهة يفكر .. إنهما يريدان طرف خيط يقودهما إلى الضحية الثالثة ، فلو تمكنا من منع الخدم أيًا ما كانوا من قتل الضحية الثالثة ، فربما منع هذا من عودة (الذى لم يمت) أو ربما أخره قليلاً ..

المشكلة أن التفكير البوليسى لن يجدى فتيلاً هذه المرة .. إنه ليس بقاتل مهووس يترك أدلة ، ولا يوجد رابط مرئى بين الضحايا ، إلا لو افترضنا أن هناك رابطًا ما بين الحاج (مرزوق) والمهندس (أكرم) سوى كونهما أحفاد الحراس الثلاثة ..

ملاحظة أخرى هى أنهما بلا أبناء ، وهذا يضيق دائرة البحث نوعًا .. فى مصر الآن ٤٠ مليون شخص لم ينجب على الأقل ، واحد منهم سيموت الليلة تقريبًا .. سيقتله الخدم ثم سيعود (الذى لم يمت) بعد سبات دام لقرون طويلة ..

ملاحظة ثالثة .. الوفاة تحدث بعد منتصف الليل بساعتين تقريبًا .. معلومة قد تبدو بلا قيمة الآن ، لكن من يدرى ؟

لو لم يكن يشعر بالإرهاق لربما استطاع التفكير بصورة أفضل .. إن فكرة النوم لا تبدو بهذا السوء .. بضع ساعات ليجدد نشاطه بعدها سيقتل (الذى لم يمت) بيديه العاريتين .. نعم .. فقط حين ينام ..

وببطء واثق سقط جفناه ..

ولم .. يعد .. هنا ..

* * *

(٧)

من العجيب أن تستيقظ فى فراش رجل مات منذ زمن قصير ..

لسبب ما يظل الفراش باردًا مهما نمت فيه .. وكان هذا هو أول شىء فكّر (شريف) فيه حين استيقظ .. إنه الليل ! .. أين (رمزى) ؟!

ترك (شريف) الفراش البارد ، ثم جرّ ساقيه إلى خارج الغرفة ليجد (رمزى) مستلقيًا على الأريكة ، وقد غط فى نوم عميق وإلى جواره وجد حقيبته هو وقد فتحت ، والكتاب الأسود على المنضدة الصغيرة جوار (رمزى) ..

لقد قرأ الكتاب للمرة الثانية إذن ..

من العسير أن يعرف ما الذى يراه الآن فى الحلم ، ففى كل مرة تقرأ فيها هذا الكتاب تحلم بشىء مختلف .. شىء مخيف ..

هكذا اقترب (شريف) من (رمزى) بخطوات حذرة ، ليرى على الضوء الخافت القادم من غرفة النوم ، وجه (رمزى) وهو يتلوى ألمًا ، فمدّ يده ليوقظه وهو يقول :

ـ (رمزى) .. إنك تحلـ ...

لكنه لم يجد الفرصة ليتم عبارته ، إذ استيقظ (رمزى) فجأة وقد بدت عليه الصدمة ، ليحدق فى (شريف) المندهش بعينين محمرتين ، وليهب فجأة ليمسك بيد (شريف) صائحاً :

ـ يجب أن تهرب حالاً ..

ـ لماذا ؟!

ـ لا وقت للشرح .. هيا ..

وجذب (شريف) من يده بقوة ، لكن هذا الأخير انتزعها منه ، ليصيح :

ـ يجب أن نأخذ الكتاب ..

وبسرعة التقط الكتاب وأعاده إلى الحقيبة ، ثم حملها ليتبع (رمزى) الذى أخذ يتقافز على الدرج ، حتى خرجا من البناية ، ولم تكد سيارة (رمزى) تضمهما حتى صاح (شريف) :

ـ هل لى أن أفهم أولاً ؟!

ـ فيما بعد .. المهم أن نبتعد قدر الإمكان وأن نجد مخبأ آمناً ..

ـ لكننا لم نفحص المنزل بعد !

ـ لا داعى لهذا .. لقد عرفت من هو الحفيد الثالث ..

ثم إنه أدار محرك سيارته ليردف باقتضاب :

ـ إنه أنا ..

ـ !!!

* * *

وفى شقة المهندس (أكرم) سابقاً كان هناك شىء عجيب يحدث ..

كان المصباح الكهربى الوحيد المضاء فى غرفة النوم يرتعش بشدة كأنما أصابته الحمى .. ثم بدأ المصباح يصدر ذلك الأزيز المميز والضوء ذاته يتقطع بسرعة ، قبل أن ينطفأ المصباح فجأة ليسود الظلام ..

وفى الردهة كان الظلام يتحرك !

نعم يتحرك .. يتشكل .. يتجسد ويتحول إلى ثلاثة قوالب مخلفاً خلفه ظلاماً فوقه ظلام !

وللحظات أخذت كتل الظلام الثلاثة هذه تتموج ، لتتشكل أخيراً فى صورة ثلاثة محاربين أشبه بمحاربى القرون الوسطى بأجسادهم الضخمة ومع بعض فارق هام للغاية .. أنهم كانوا بلا وجوه !

وكان كل واحد منهم يحمل سيفاً أسود هائل الحجم مخيفاً كالقدر ذاته ..

وتحركوا ..

بدون أن يتبادلوا صوتاً خرج الثلاثة خارجين من الردهة مخترقين الجدران ، متجهين إلى هدفهم الأخير ..

الحفيد الثالث ..

وأسفل المبنى كانت سيارة (رمزى) قد تحركت بالفعل مصدرة الصرير المعتاد لمن يندفعون بسيارتهم كالصواريخ ، ثم دارت حول نفسها نصف دورة ، قبل أن تواصل اندفاعها مبتعدة ..

ومن جدران المبنى خرج الخدم الثلاثة كثلاثة أشباح أسطورية ، ليطيروا مندفعين خلف سيارة (رمزى) ..

وهكذا بدأت أغرب مطاردة فى تاريخ مصر .. وداخل السيارة كان (شريف) يصيح فى هلع :

- إنهم خلفنا ..

ألقى (رمزى) بنظرة سريعة على مرآة السيارة ، ثم أدار عجلة القيادة بسرعة قائلاً باقتضاب :

- لن يظفروا بنا ..

قالها ثم أخذ يقود السيارة بسرعة جنونية ومرآة السيارة تعكس له الخدم الثلاثة الذين لم تتغير المسافة بينهم وبين السيارة .. بل أخذت تقل ..

وبهلع احتضن (شريف) الكتاب الأسود ، وانكمش فى مكانه وعيناه معلقتان على المرآة الجانبية ، التى عكست له الكابوس

الذى يطاردهم ، بينما أخذت قطرات العرق تولد وتسيل على جانب وجه (رمزى) ..

إنهم قادمون من أجله .. من أجله هو ..

الذى لم يمت سينتزع قلبه كما وعده ..

لقد حلم بالذى يحدث الآن حين غفا فى ردهة منزل المهندس (أكرم) .. قرأ الكتاب ثم نام ليحلم بالخدم يتجسدون فى الردهة ليطيحوا برأسه بضربة واحدة .. لماذا ؟

لأنه الحفيد الثالث .. لم يكن يعرف هذا أو يتوقعه لكنها الحقيقة التى يجب عليه أن يدفع ثمنها ..

لكن لا .. لن يسقط فى أيديهم .. سيدخل فى هذا الزقاق .. منه إلى هذا الشارع .. يدور بسرعة خلف هذه السيارة .. يهرب .. يهرب .. يهرب ..

لكن الحقيقة الواضحة هى أن الخدم كانوا يقتربون أكثر وأكثر ..

يخترقون المبانى والجدران والسيارات والزمن متجهين نحوه وكل المصابيح التى يمرون بها تطفأ لينتشر ظلامهم أكثر وأكثر ..

يتجنب الاصطدام بهذه السيدة .. يقفز فوق الرصيف .. يحتك بسيارة مجاورة ليتطاير الشرر .. أسرع .. أسرع ..

لكنهم يقتربون .. يقتربون إلى الحد الذى يكفى ليرى (رمزى) وجوههم الخاوية تملأ مرآة سيارته ، فى اللحظة التى دخل فيها إلى ذلك الشارع المقفر ، ليتشتت انتباه للحظة واحدة ، مرت فيها إطارات السيارة فوق ذلك البروز فى الشارع غير المعهد و ... و ...

وطارت السيارة كقذيفة مدفع قديم ، ثم هوت بمقدمتها ليخترق جسد (شريف) الزجاج الأمامى خارجًا من السيارة ، بينما أطبقت عجلة القيادة على صدر (رمزى) ليسمع صوت ضلوعه إذ تهشمت بقسوة ، قبل أن تنقلب به السيارة عدة مرات ، لتهمد أخيرًا على ظهرها على جانب الطريق ..

وللحظة فقد (رمزى) الوعى ، ثم شعر بطعم دمائه يملأ فمه وبألم مخيف فى صدره ، فأخذ يحرك عينيه عاجزًا عن تخليص جسده المحشور فى السيارة ، وفكرة واحدة تملأ رأسه ..

سينتزعون قلبه الآن ..

سينتزعون قلبه الآن ..

سينتزعون قلبه الآن ..

لكن .. ما الذى يؤخرهم ؟!

لابد أن الخدم قد بلغوه ، فما الذى يؤخرهم و ...

وفجأة اخترق الخدم السيارة ليشعر (رمزى) ببرودة عجيبة تملأ السيارة ، ثم اخترقه الخدم لينتفض جسده رهبة ، قبل أن يتجاوزه الخدم متجهين إلى هدفهم ..

الحفيد الثالث ..

(شريف) !

وانتبه (رمزى) إلى هذه الحقيقة ، فبصق الدماء التى تملأ فمه وصرخ ..

ـ شريييييييييييف ..

لكنه سمع أنين (شريف) الذى يبدو أنه حاول الهرب ، ثم سمع صوت التمزيق المخيف ، ليخمد الأنين إلى الأبد ..

ـ شريييييييييييف ..

لكنه لم يعد هناك ..

ـ شريييييييييييف ..

ثم فقد الوعى ... ثم استعاده ..

ولابد أن الأمر قد استغرق وقتًا طويلاً ، قبل أن يتمكن أخيرًا من الخروج من السيارة ..

خرج منها مهشم الضلوع يرتجف والدماء تغطى وجهه وصدره ، ثم أخذ يزحف تجاه جثة (شريف) التى استقرت على قارعة الطريق ، باردة بلاسمة بلا رأس ، بينما يدا الجثة تحتضنان الكتاب الأسود ..

- شريف ..

همس بها (رمزى) والدموع تسيل على وجهه يأسًا ، ثم مدّ يده لينتزع الكتاب الأسود ..

احتضنه ثم استلقى على ظهره لتمتزج دماؤه بدماء (شريف) ..

لقد نجى .. لكنه فشل ..

الأحفاد الثلاثة قتلوا .. وسيعود الذى لم يمت ، ليعود معه الهول ذاته ..

سيعود وستكون هذه هى النهاية ..

نهاية كل شىء ..

لكن صوتًا ما كان يصدر من جثة (شريف) !!

وبصعوبة أدرك (رمزى) مصدره ، قبل أن يمدّ يده فى جيب (شريف) ليخرج ذلك الكيس الصغير الذى يحتوى على الحشرة الذهبية .. لقد كان الصوت يصدر منها خافتًا ، فلم يجد (رمزى) أمامه سوى أن يقرّب الكيس من أذنه ، ليسمع أغرب كلمة سمعها فى حياته ..

صالامان .. صالامان !!

* * *

ثم يعود الذى لم يمت ..

(٨)

وكان الدكتور (عصام) يعرف كل شىء عن قصة (مايا) ..

إنه جديد فى هذه المستشفى ، لكنه تأقلم سريعًا مع الممرضات وهكذا فتحت له أسرار الكون ذاته .. الممرضات فى أى مستشفى يشكلن خلية نحل عملاقة تختزن المعلومات وتتناقلها بسرعة لا يقدر عليها الإنترنت ذاته ؛ وهذا ما كان الدكتور (عصام) يعرفه من خبراته السابقة ، لذا فكان أول ما فعله حين وصل إلى هذه المستشفى ، هى أنه عقد أكبر كم ممكن من الصداقات مع الممرضات ..

هكذا عرف حالة كل مريض فى كل غرفة ، فلم يجد سوى المصابين بالأرق والاضطهاد والانفصام والهوس والجنون المطبق وهى كلها أشياء اعتادها حتى أصبحت تصيبه بالملل بل وبنوع من الإحباط ، لكن حالة (مايا) كانت الحالة الوحيدة التى استرعت انتباهه ، فأخذ يسأل عنها لينهمر سيل المعلومات عليه ، يحكى له كل شىء منذ لحظة دخول (مايا) المستشفى ، وحتى تلك الليلة التى سقطت فيها فى تلك الغيبوبة العجيبة مع العم (فتحى) الذى أصبح يشاطرها غرفتها ..

وأيضًا عرف (عصام) أن عشرات الأطباء فحصوا (مايا) و(فتحى) دون أن يصلوا إلى شىء .. أطباء لهم أسماؤهم التى تلقى بالخوف فى قلب المرض نفسه ، لكنهم عجزوا عن فهم أى شىء يتعلق بحالة (مايا) و(فتحى) ، وكان هذا إغراءً للدكتور (عصام) ما بعده إغراء ..

يجب أن يفحص (مايا) بنفسه .. يجب أن ينجح فيما فشل فيه الجميع ..

هكذا اتجه منذ يومين إلى مدير القسم ، ليعرض عليه مطلبه ليقابل برفض واضح صريح رادع لا أمل للجدال معه ، وخرج من غرفة مدير القسم ليكون آخر ما يسمعه :

ـ غير مسموح لأحد أن يدخل غرفة (مايا) مهما كان السبب ..

فيما بعد عرف (عصام) أن قرار مديره هذا لم يك من فراغ ، لكن يبدو أن الحماس قد استبد ببعض من فحصوا (مايا) سابقًا ، حتى كادوا يعرضون حياتها للخطر ، و(مايا) منجم ذهب حقيقى للمستشفى ، مع المبالغ الطائلة التى يدفعها والداها بانتظام للمستشفى ؛ لذا أصبحت (مايا) أشبه بـ (عهدة) لا يصح العبث معها مهما كان السبب ..

لكن الدكتور (عصام) كان من ذلك النوع المزعج الذى يعتقد أنه كلما زاد التحدى صعوبة ، كلما أصبح ممتعًا أكثر ، وهذا النوع من البشر ينتهى فى القبور سريعًا ، ولو لم تصدقنى اقرأ

قصص كل الذين هلكوا وهم يستكشفون كهوفًا مهجورة ، أو قمم جبال متجمدة ، أو أعماق محيطات لم يبلغها أحد .. إنهم اعتقدوا أن التحدى الأصعب هو الأفضل ، وهكذا تحولوا إلى أخبار مؤسفة فى صفحات هامشية فى بعض الصحف ..

وهذا بالضبط ما سيحدث للدكتور (عصام) بعد قليل ، لكنى سأنقل لك ما حدث بترتيب حدوثه ..

حين حصل الدكتور (عصام) على قرار بالرفض من مديره ، قرر الحصول على موافقة من السلطة الحقيقية للمستشفى .. الممرضات ..

بعض الأوراق من فئة العشر جنيهات خرجت من جيبه ، وهكذا أصبح بإمكانه أن يأتى لزيارة (مايا) فى غرفتها الليلة بعد الساعة الواحدة ، دون أن يعرف أحد بهذا ..

حلمه سيصبح حقيقة واقعة الليلة ولكم هو ممض الانتظار !

وإلى أن يأتى المساء أمامه يوم كامل ليقضيه مع المرضى التقليديين المصابين بالأرق والاضطهاد والانفصام والهوس والجنون المطبق ..

* * *

ثم دقت الساعة الواحدة صباحًا أخيرًا لتطرق تلك الممرضة على غرفة الدكتور (عصام) لتوقظه حسب الاتفاق ، لكنها وجدته مستيقظًا وعيناه محمرتان من فرط اللهفة والإرهاق ..

وكان يحمل حقيبة معداته .. اليوم سيحصل على كل شيء من (مايا) .. عينة دم وعرق وبول وربما قطعة من مخها للفحص الدقيق ..

وفى تمام الواحدة والخمس دقائق كان الدكتور (عصام) يجتاز باب غرفة (مايا) ، لتغلق الممرضة الباب عليه من الخارج ، لتصبح الغرفة كلها تحت رحمته ..

كانت (مايا) ترقد على فراشها كملاك ضئيل الحجم ، وعشرات الأنابيب تخرج وتدخل إليها لتبقيها على قيد الحياة ، وجوارها لا يفصل بينهما إلا ستارة بلاستيكية ، رقد العم (فتحى) وقد استطالت لحيته البيضاء حتى بلغت صدره ..

سيكون من الصعب العثور على وريد ظاهر فى ذراع هذه الفتاة للحصول على عينة دم ! هذا ما فكّر فيه الدكتور (عصام) وهو يقترب منها مخرجاً محقناً فارغاً من حقيبته ، لكنها ليست بمشكلة .. أمامه جسدها كله تحت تصرفه ليحصل على كم الدماء الذى يريده ، المهم أن ينتهى سريعاً فلو حدث أى شيء أو لو اكتشف أحدهم وجوده هنا ، لن يجد ممرضة واحدة للدفاع عنه ..

اقترب من (مايا) مسدداً المحقن تجاهها ومد يده ليكشف عنقها النحيل ، فى اللحظة التى بدأ مصباح الغرفة يصدر ذلك الأزيز المميز ..

ثم بدأ الضوء يرتعش .. ومن الجلبة التى دوت خارج الغرفة ، أدرك (عصام) أن هذا الهوس الذى أصاب المصباح يحدث فى الخارج وليس فى هذه الغرفة فحسب ..

ثم ساد الظلام لتعود معه مخاوف الطفولة فى أعماق الدكتور (عصام) دون أن يدرى لهذا سبباً .. إن الظلام .. أسود ..

أسود مما ينبغى .. ثم تلك البرودة القارصة التى اجتاحته فجأة .. شيء ما غير طبيعى .. شيء ما يقف أمامه كأنه كتلة من الظلام .. كتلة على هيئة محارب من محاربى القرون الوسطى يحمل سيفاً أسود .. إنه يرى هذا كله بصعوبة بالغة لكنه يراه رغم الظلمة !

يرى المحارب يرفع السيف تجاهه .. يراه يهوى عليه .. به ...

وهكذا يمكننا أن ننسى الدكتور (عصام) ، فلم يعد له وجود !

فى الخارج سمعوا صوت ارتطام الجسد ، فأخذوا يقرعون على الباب بعصبية وقد زادهم الظلام توتراً .. إن المولد الاحتياطى لم يعمل وهذا يعنى ليلة من الظلام فى مستشفى المجانين هذه ، وهذه نقطة يصعب احتمالها بأى صورة من الصور ..

أما الخدم الثلاثة فدون أن يصدروا صوتًـا أحاطوا بفراش (مايا) ، ثم أخذ كل واحد منهم يرفع سيفه المهيب ببطء مسددًا نصله تجاه جسد (مايا) فاقدة الوعى ..

الآن ما عليهم سوى الانتظار ..

وعلى بعد كيلومتر واحد من المستشفى كان هناك مشهد عجيب حقًا ..

كان الأخرس لقبًا وليس حقيقة يجرى حاملاً عصاه الضخمة وشعره الأبيض الطويل يتطاير من خلفه ، تتبعه القطط السوداء التى بدا عليها التحفز ..

وعلى الرغم من لهاثه كان يردد :

ـ حان الوقت .. حان الوقت ..

وكان يتجه إلى المستشفى !

وعند بوابة المستشفى الخارجية كان حارس الأمن المسكين يحدق ذاهلاً فى ذلك الرجل الطويل كجذع شجرة ، المتسربل فى عباءة سوداء قاتمة أخفت جسده ، بينما انسدل شعره الأسود الطويل على جانبى وجهه الأبيض الشاحب والذى أخذ يقترب ببطء من بوابة المستشفى ..

كانت ملامحه وسيمة تلك الوسامة التى تبث الرعب فى قلوب الرجال .. وكان وجهه يحمل ابتسامة عجيبة .. ابتسامة من تحرر من سجن دام لقرون !

ولم يكن الحارس المسكين يحدق فيه لغرابة ملابسه ولا هيئته ، ولا حتى لأنه كان يسير بخطوات وئيدة تجاه بوابة المستشفى رغم الظلام الذى خيم على المكان ، بل لشىء آخر ..

فمع اقتراب هذا الغريب أخذت بوابة المستشفى المعدنية الضخمة تتلوى كورقة كأن يدًا هائلة خفية تعتصرها بلا رحمة ، قبل أن يبدأ المعدن نفسه فى الذوبان ، لتسيل البوابة على الأرض معدنًا ذائبًا تتصاعد منه الأبخرة !

وأمام هذا المشهد الرهيب فقد الحارس قدرته على الحركة ، فظلّ جامدًا مكانه ، حتى بلغه الغريب ليشعر بثلوجة مخيفة تغزو جسده كله .. ثلوجة أدرك معها الحارس المسكين حقيقة أنه يتجمد !

يتجمد حيًا !

وبذات الخطوات الوئيدة مرّ الغريب من جواره على بعد سنتيمترات قليلة دون أن يعيره أدنى اهتمام ، فانتزع الحارس نفسه من جموده ليهمس ذاهلاً :

- من .. أنت ؟

قالها وقد بدأت الحياة تفارق جسده الذى يتحول إلى تمثال من الثلج ، فتوقف الغريب بعد أن كان قد تجاوزه ببضع خطوات .. ثم وببطء التفت إليه وابتسامته المخيفة منحوتة على شفتيه ..

وخرجت الإجابة من فمه تحمل صدى القرون وصوتًا لم يسمع الحارس المسكين له مثيلا :

- اسمى هو .. (صالامان) ..

وكان هذا هو آخر شىء سمعه الحارس المسكين قبل أن يسقط أرضًا ليتهشم كالزجاج ..

أما الغريب فلقد اتسعت ابتسامته الرهيبة أكثر ، ثم واصل طريقه إلى بوابة المستشفى الداخلية ..

إن مهمة واحدة تنتظره فى الداخل ، بعدها .. بعدها ..

بعدها سيبدأ عصره ..

ولن يوقفه أحد ..

انتهى الجزء الأول بحمد الله

ويليه الجزء الثانى والأخير

[الكتاب الأسود]